التجربة الإبداعية
فى شعر
جبران خليل جبران

د. وجيهة محمد المكاوى
كلية الدراسات الإسلامية بالسادات
جامعة الأزهر

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المذهب الرومانسي لقى كثيرا من الاهتمام إذ تناوله النقاد والأدباء بالشرح والتحليل مبينين سبب تصدره للساحة ألأدبية، وسماته، وخصائصه، وكانت مدرسة المهجر من أكثر المدارس تأثراً بهذا التيار إذ إن الوجود فى الغرب اختزل المسافة، فأيما تطور أو تطوير يطرأ يمس المهجريين مباشرة فيكونوا أشد تأثراً به ويظهر هذا التأثر فى إبداعهم وكان جبران من أشد المتأثرين بالرومانسية تجلى ذلك فى منجزاته كافة وفى قصيدة " المواكب " بصفة خاصة إذ عكست ثقافته ورؤاه واتجاهاته التى اتسمت بالتغيير، وعدم الثبات نتيجة لتغير فهمه وتوجهه، وتبدى فى أعماله تأثره بالثقافة الغربية عامة والرومانسية خاصة ؛ إذ تأثرت تجربته الإبداعية بالمناخ الثقافي المسيطر بشكل عام، والصفوة المحيطين به بشكل خاص حيث اصطحب نخبة من الأدباء فى حله وترحاله، فبدى جلياً تأثره بهم وبنتاجهم، والمواكب مترامية الأهداف من دعاوى متتالية للتغيير ورفض الاستسلام،والتزام الإيجابية ؛ واتسمت بالجدة فى النظم ومحتواه.. واللفظ والمعنى والعاطفة، والصور الشعرية، وغيرها من العناصر المكونة للتجربة الشعرية وقد صارت الخطة كالأتى :

توطئة.... عصر جبران المذهب الرومانسى وتيار المهجر

الفصل الأول: الشاعر والتجربة... تعريف الشاعر – ثقافته وأثرها فى تجربته

الفصل الثانى: قراءة جديدة لبعض أبيات المواكب تحليل وتفسير

عناصر التجربة الإبداعية فيها

العاطفة – الإيقاع والموسيقى– المعانى – الصورة الشعرية والتصوير الفنى – اللغة والأسلوب

الخاتمة – أهم النتائج – المصادر والمراجع

توطئة

عصر جبران

المذهب الرومانسي – مدرسة المهجر

لقد استقر التيار الكلاسيكى بشكله ومضمونه، ردحاً طويلاً يستدعى الأدباء المبدعين القدامى،ويستلهموهم ويقتفوا آثار منجزاتهم الأدبية، ثم ظهرت الرومانسية وإذا بالرومانسيين ينفضون عن كاهلهم النماذج المعدة سلفاً وانطلقوا معبرين عن احتياجاتهم ومقتضيات عصرهم.ولا شك أن للثورة الفرنسية ١٧٨٩ اليد الطولى فى ذلك، إذ صُف المجتمع الغربى للتخلص من الضوابط والقيود فى التنظيم الاجتماعي، والقيم الجمالية، والطرق السلوكية، والقواعد الأخلاقية "فالاتجاه الرومانسى ينتشر عادة فى المجتمع الذى يبدأ فى زحزحة الأسس التى يقوم عليها بناؤه الإجتماعى "– على حد قول د سيد حامد النساج [1] فاعتلت القيم الجديدة والرؤى المستحدثة ما أرسته الكلاسيكية فى النواحى المختلفة....عادات وتقاليد، مُثُل وشرائع، وجماليات مجمدة فى النواحى المختلفة مستمدة مما صاغه القدامى.... أرسطو، هوراس وغيرهما من مفكرى الإغريق، وصار الإنتاج الأدبى متلازماً مع الرؤى الفكرية ؛ يتطور عبر قفزات تشهد بخصوبة الحضارة الأوربية من عصر النهضة إلى عصر التنوير إلى عصر الثورات، إذ استبدلت قيم بقيم ومسالك بأُخرى." ومن هذا الجانب تعتبر الرومانسية صياغة حضارية لازمة التناقض بين القيم القديمة والعلاقات الإجتماعية الجديدة [2] –

يقول ف. ج. فيشر: فالحركة الرومانسية التى بدأها روسو فى فرنسا وأينعت عند "ورد زورث " "وبيرون" وشيلى " وكيتس " حركة برجوازية صميمة ثائرة تهدف

---

١) فى الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج صـ ٩ مكتبة غريب
٢) المرجع نفسه صـ ٩

إلى تحرر " الأنا" من جميع القيود المعروفة وتمجد الذات، وتقيس الكون كله لا المجتمع وحده بمقياس " الفرد "[1] والإنسان كفرد محط اهتمام الرومانسية .

وأُتيح للمبدع أن يتكلم عن ذاته ما يموج فى قلبه، ينطق به لسانه وما يُثار فى خياله يسجله بكلماته

" وبينما كان يطلب من الكلاسى أن يكبح جماح مخيلته، فإن الرومانسى أصبح حراً فى أن يطلق لخياله العنان وأن ينطلق وراء اللا محدود والمطلق " فالفرد " هو الغاية العظمى فى الأدب الرومانسى وبه تستنهض المجتمعات وهو قرة عين الطبقة الوسطى التى سادت " وهو ريحانتها العاطرة وقلبها النابض" [2]

وقد ظهر التيار الرومانسى فى الأدب لإن الأدب بات فردياً أو ذاتياً في جوهره " أن الإنسان الفرد بالذات مخزن لا ينضب من الممكنات [3] فالفرد... يستطيع فعل كل شيء... كذلك الأدب يملك التعبير عن كل شيء فهو يركز فى التعبير عن نفسه ويطرح " تصوير " الحياة " " " كنمط " يمثل النموذج الأعلى المراد تجسيده. وتشكل الفردية حجر الزاوية فى الاتجاه الرومانسى... إذ يؤمن الرومانسيون بالفردية وعبقريتها.. قدرة فردية.. حرية تطورت إلى ذاتية فى الأدب والفن ورفع شعار " ثق بنفسك" تاركين للفرد الحرية فى الإنطلاق والتجديد خاضعين لفكرهم وآرائهم عارضين تجاربهم وسمتهم الذاتي بما أُتوه من قدرات فللمبدع مندوحة فى الخضوع للنزعة الفردية والتعبير عنها كما يريد.

---

١) الرومانطيقية ومعالمها فى الشعر العربى الحديث عيسى يوسف بلاطة دار الثقافة بيروت صـ ٨ ١٩٦٢.

٢) فى الرومانسية والواقعية حامد النساج صـ ١٠

٣) المرجع السابق ١٣

فهو تعبير " ذات معينة تنتمى لطبقة معينة لها طبائع وغرائز ومشكلات وأمانى معينة" (١)

وهذا الإفراط فى منح مزايا " للذات " "أو للفرد " يقابله تفريط فى حق "المجتمع " الحاوى لهذا الفرد إذ إن الإسهاب فى التعبير عن الأنا "الذات " يقترن به إيجاز فى الإندماج مع المجتمع... مشكلاته...وآرائه مما يوسم الفن بالانعزالية والانغلاق، وهما قبيحان فى الفن إذ" أن الفن تعبير اجتماعى....موضوعه الإنسان داخل المجتمع الإنسانى، الذى يعيش دائماً على الرقى بفعله، دائباً على التسامى بعواطفه داخل مجتمع إنسانى يتطور بتعاقب الأجيال إلى الأمام فى غير رجعة أو نكوص على الأعقاب " " (٢)

وهناك الأبعاد الثلاثة التى تنساب داخل العمل الفنى بوعى أو لا وعى من الأديب الرومانسى، فالبعد الزمانى، والبعد المكانى، والبعد الصوتى، وحدات رئيسة مكونة للعمل الإبداعى: إذ قد يفر المبدع من واقعه موغلاُ فى عصور مضت يستروح بفيئها وما تبعثه فى نفسه من أريحية باسطة الظل، والبعد المكانى إذ يفر من مجتمعه ملتحقاً بمجتمع أخر يوفر له مبتغاه من الحرية والعدل والجمال، وقد يلجأ للبعد الصوتى؛ إن مل صخب المدينة وتطلعت روحه إلى هدوء الصحراء، مطلقين للفنان لعنان ليحتويهم ثم يبثونه كلمة ولحناً مدركين أهميته فالفكرة السائدة أن الفن لن يكن صنعة ترفيهية ولا سحر بل هو رؤية لا مجرد سيكولوجيا للإنفعال وإنما هو بمعناه الحق تعبير وخيال يتبدى فيه ثقافة القائل وقدراته.

(١) فى الرومانسية والواقعية د/ سيد حامد النساج ص١٦
(٢) المرجع نفسه ص١٧

وقد بُهر المهجريون من أجواء الحرية، وآفاق الإبداع اللا متناهى الذى يعم بلد المهجر

والشاعر الرومانسى يغلب عليه النظر فى ذاته، والتقوقع على نفسه ليستبين ملامحها، وما يعن لها فغلب عليه الشعر الغنائى، فمن خلاله يستفرغ الإنفعال متبدياً فى القوة الشعرية بالإضافة إلى أن الشاعر لا يرهق إرهاقه فى الفنون الموضوعية فلا يحتاج إلى شحذ نفسه وكلماته بشحنات استدلالية أو صيغ برهانية وما يقتضيه ذلك من إمتلاك ملكات جادة بل ساد وعم احساس بالحب على الشاعر الرومانسى احساس يعيشه ويجيد التعبير عنه باستفاضه وبتنوع[1]

(١) (فى كتاب فى الرومانسية والواقعية استعرض د / سيد حامد النساج باستفاضة أنواع الحب عند الرومانسيين صـ٢٢ وما بعدها .

الطبيـعة وأثرها فى الاتجاه الرومانسي - جبران

شكلت الطبيعة حيزاً مميزاً من الأدب الرومانسي، إذ فرضت وجودها وأكدته، فحضرت بقوة فى الإبداع الرومانسي، فالطبيعة عند الرومانسيين هى المأوى الذى يفرون إليه بعد اصطدامهم بالحضارة الغربية المتوحشة، إذ مثلت الطبيعة الحرية والبراءة الطفولية، وتبدى ذلك واضحاُ فى إبداعات " روسو " ثورو" وتمدد إحتفاؤهم بالطبيعة، فشمل بلاد أوروبا "جوته " بألمانيا" ورد زورث " بانجلترا. وتبنى الاهتمام بالطبيعة الفئات المختلفة من رجال الفكر والدين

" وكانت صيحة الحرب فى مبدأ الحركة الرومانسية أن " عودوا إلى الطبيعة فأصبحت حين بلغت الحركة عنفوانها وقمة تطورها ونموها فى أوائل القرن التاسع عشر " اتحدوا مع الطبيعة"[1] والطبيعة عندهم مادة حية يعيش فيها الرومانسى وتؤثر على نفسه، فيظهر التأثير انعكاسها المتجدد على صفحة حياته، وهم لم يستجبروا الطبيعة أو تطغى عليهم بحدتها بل أعطوا مساحة واسعة لاستعراض قدرات الإنسان ومقدرته على السيطرة عليها عن طريق كشف الأستار والحجب وإخضاعها لمشيئته " إن الطبيعة عند الرومانسيين ليست قوة معادية قاهرة كما كان المفهوم من قبل، بل صارت وسيلة للكشف عن طريق تغلغل النفس الإنسانية أصول ما حولها واستكناه أسرار محركها الأول [2]

تشعب الأدباء الرومانسيون يطرقون أبواباً شتى فى الإبداع الرومانسى إذ أبدع "ولترسكود" فى القصص التاريخى،إذ جعل الشخصيات التاريخية تحتل المرتبة الثانية، واخترع شخصيات وصدرها فى المكانة الأولى، ممثلين للفئات المختلفة، فى الزمن المختار لإحياء عاداته وتقاليده وتحمليها أفكار الكاتب، واستطاع سن

(١) بورمثيوس طليقاً د لويس عوض مكتبة النهضة المصرية ٩٤٧ صـ ٤٢
(٢) فى الرومانسية والواقعية د / سيد حامد النساج صـ ١٨

قوانين فنية فى هذا النوع لازالت متبعة دون تغيير،وكانت النظرة للطبيعة ذاتية بحتة، لذا تفشى وجودها فى الشعر الغنائى، إذ تسيطر العواطف وتلتحم بالطبيعة " فأدبهم الغنائى كان عاطفياً وخاصاً بوصف الطبيعة"[1] وقد كلف الرومانسيون بالقصص المرعبة، والمخترقة للأطر المألوفة: إما خدشاً للأعراف السائدة، أو إيغالاً فى الإبهام والإخفاء، أو اختلاقاً للحدة والعصبية فى القصص والمسرح، ويعد "إدجار آلان بو" رائد للقصة البوليسية الرومانسية،

وأعطى الرومانسيون للصياغة أهمية كبرى فأمامهم هدفاً واضحاً استمالة القارىء " والسيطرة عليه لذا يشحذ الصورة ويملئوها بالتهويل والمبالغة، بل والعنف فى التعبير والاحتفال بالمفاجأت، حكراً على النواحى الحزينة، بل قد يقارب النواحى المبهجة، إذ تحدث مفارقات فنية تخدم العمل الفنى واتجاهه، وإن خرجت عن المألوف والمعهود، ففى العمل الفنى لا بد أن يتوفر نظم قادرة على إيجاد إرادات مختلفة، ووقوع صراع بينهما سواء أكانت هذه النظم يحملها شخصيات "قصاً" أو يقوم بها إحساس وشعور " شعراً"

وقد ساد الاتجاه الرومانسى وقامت به شخصيات " برجوازية " وعبر الشعر عن نفس قائله وصار " بصورة واعية أو صورة لا واعية مادة شخصية أكثر من ذى قبل مرآة الفردية الخاصة لأى رجل وصدى تفرده وشذى حساسيته الخاصة [2]

صار الأدب الرومانسى كتلة فنية سائدة تنكفىء على أجزاء مشكلة الحزن الفرح الوهم والحقيقة، الأمل فى السعادة والحياة، ملازمة اليأس والتفكير فى الموت يقترن بفكرة التعمير و التغيير، قد تم بنسياب وهدوء، فلم يوجد عند المهجريين شعراء لهم ثقلهم الفنى ؛ يُخْشَون عند التجديد أو لغويين يدخلوا مع المجددين فى سجال حول أهمية التجديد اللغوى وحتمية التعبير عن العصر بمفردات العصر، لذا انساب التغيير فى هدوء وتبدى فى التجارب الذاتية المحملة

(١) تاريخ الأدب الفرنسى – جوستاف لانسون – ت د محمود قاسم جـ ٢ صـ ٢٣٩
(٢) فى الرومانسية والواقعية د / سيد حامد النساج صـ ٣٧

بالعواطف وهو ما يناقض ما حدث فى المشرق. والملاحظ أنهم حينما يصفون الطبيعة يصفونها من خلال ذواتهم ليس بشكل مجرد " فهى ثائرة مع ثورتهم، هادئة مع هدوءهم، وهى عارية فى كآبتهم، ناضرة فى انشراحهم، وهم يرون فى ظواهرها المتعددة رموزاً لحياة الإنسان،كما اقترن تعلق الرومانسيين بالطبيعة بتعلقهم بالريفيين السذج، والرعاة الوادعين الذين ظلوا بعيدين عن ضوضاء المدن، وخداع المدينة،وقيود الحضارة – على حد قول عيسى يوسف بلاطة – [1] وفى منتصف القرن التاسع عشر، وبعد أن كان المميزين يحلقون فى الأوهام اصطدم الجمع بالواقع، وتشظت الرومانسية إلى إتجاهات ورؤى

" الفن للفن " " التأثيرية " التعبيرية" الرمزية " وغيرها وكل هذه التقسيمات ؛ جمعها شىء واحد هى التقوقع داخل الذات وغلق الباب عما هو مجتمعى وعام خارج الذات، فالذات.. لديهم – هى الحقيقة الثابتة التى لا تقبل الشك، ثم بدأت الاتجاهات الأدبية تأخذ طابع الفن للمجتمع وتقف أمام التيار الفردى الذى ينادى بأن الفن للفن وحده. وأن الشعر لا يصح أن يوزن إلا بموازين الفن الجمالية وليس فى موضوعه ولا من مهمته أن يخدم الأخلاق أو يسخر لأهداف اجتماعية[٢] وكان هذا الحراك الفكرى والثقافى والأدبى، يسرى فى المجتمعات على كافة أنحاء العالم، بنسب متفاوتة بين القوة والضعف،الشدة واللين،واستجابة المبدعون له تخضع لمزاج الشاعر وطبيعة موهبته، أو تنظيم معركى فنى بين أنصار القديم والجديد وكان المبدعون المهاجرون أكثر استجابة وبيئة أحد تأثراً

(١) الرومنطيقية ومعالمها فى الشعر العربى الحديث– دار الثقافة بيروت ١٩٦٠ صـ ٥٩
(٢) الشعر العربى القومى فى مصر والشام بين الحربين العالمية الأولى والثانية سميرة محمد زكى أبو غزالة المؤسسة المصرية العالمية للتأليف والترجمة صـ٩٥

مدرسة الأدب المهجري وسماته

فى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، كان القهر والإستبداد على أشده فى المجتمعات العربية، ففر الشباب اللبناني والسوري إلى نزح صفوة فى الزمن السحيق من أُولى الثقافة والفكر إلى امريكا، فارين من بطش الحكام أو طحن العوز والحاجة... وكان أكثرهم ذو خصال فريدة ؛ إذ عُبُوا بإرثنا الفكري والثقافي واستودعوا مخزوناً أصيلاً لغوياً وأسلوبياً، ونظماً أدائياً.

بالإضافة إلى مشاعرهم الحادة، والتى لم تنقطع إزاء بلدانهم التي خرجوا منها،فلم ينبتوا عنها بل احتفظوا -لحد كبير- بعروبة القلب وعروبة اللسان، ولا شك أن افتقادهم الأوطان إحساس قمىء يعانيه الأسوياء، إذ سيطر عليهم حنين دافق، ووجد ملتاع لأوطانهم، مما يولد عندهم حزن دفين قد يدفعهم إلى الإنطواء على أنفسهم، أو الفرار إلى الطبيعة، حيث الأم الحانية الفاتحة ذراعيها دائماً لأولادها، واستتبع ذلك أن اختلفت نظرة أدباء المهجر للشعر، إذ رأوا أن له " رسالة سامية ينقلها الشاعر إلى الناس فيهذب نوازعهم الشريرة، ويستثير فيهم دوافع الحق والخير والجمال، ويتسامى بهم عن التبذل، والأحاسيس الرخيصة،إلى القيم والمثل العليا "[1] وكانوا على درجة كبيرة من الثقافة والطموح.

لقد كانت الهجرة ذاتها حركة متمردة فى وجه الاستعمار الغاشم والجبل الشحيح بالأرزاق كانت تأكيداً لوجود الفرد، وإنقاذاً لكيانه الروحي والاجتماعي لذلك كان التجاوب عميقاً بين نفسية الشاعر المهاجر وتراث الأدب الرومانتيكى وكان الأصالة الذاتية للمهاجرين [2]

(١) محطات معاصرة فى تاريخ الشعر ونقده مطران- جيل العقاد- شعراء المهجر د محمد إبراهيم الطاووسى صـ ١٧٤ دار النهضة العربي ٢٠٠٨

(٢) الطبيعة فى شعر المهجر د أنس داوود صـ ٣٠ الدار القومية للطباعة والنشر

وما كادت التجارة تدر عليهم عائداً سخياً، حتى أخرجوا ما فى جعبتهم من آداب وآراء وأفكار فأنشأوا فى الشمال ١٩٢٠ "الرابطة القلمية " برئاسة جبران وعضوية ميخائيل نعيمة وغيرهما، وفى الجنوب " العصبة الأندلسية ١٩٣٢ برئاسة ميشيل معلوف وعضوية داود شكور وغيرهما.

وإذا كانت الديوان بمبادئها وافكارها قد أثرت فى الحركة الشعرية فى الوطن العربى آنذاك وبدى ملامح " الجسارة والتجديد وتغيير الشكل والمضمون "[١] فإن جناحى المهجر أثرا كذلك تأثيراً بيناً فى مصر بصفة خاصة ؛ إذ لفتت اتجاهاته وطرقه فى التعبير الأنظار إليه ولإنه شعر عربى قريب من نفوس شعراءنا [٢]

وإن كان تأثير الشماليين نظراً للبيئة والمعين الثقافى، كان أعمق وأجدى، فالمعروف أنه كلما ارتفع المستوى الاقتصادى ارتفع المستوى الفكرى والثقافى،فرغم قلة عدد الشماليين إلا أنهم كانوا أكثر تأثيراً يعلق على ذلك د/ العزب قائلاً : " أطلق أجنحتهم الشابة فى فضاء الحرية الفنية فحلقوا فى آفاق الطبيعة والكون، والميتافزيقا وعادوا أحياناً كثيرة وعلى أجنحتهم من دم المسلمات فى هذه القضايا الكبيرة أكثر من بقعة وأعمق من لون... بينما ظل شعراء الجنوب يترددون على أنساق شوقى وأصحابه من مدرسة المحافظين ثم يعودون إلى ذواتهم فيغامرون فى طرائق التجديد " والابتداع" وهكذا ظلوا يتوافدون على الفعل الإبداعى من خلال المحافظة والتجديد والاتباع والمغامرة[٣]

وقد أفاض الأدباء والنقاد فى تسميتهم وتسمية البلدان التى هاجروا منها أو هاجروا إليها...

---

(١) عن الأدب العربى المعاصر مدارسه وأعلامه د محمد احمد العزب ط٢٠٠٢ ص٧٠
(٢) تطور الشعر العربى الحديث ص١٧٥ ماهر حسين فهمى مكتبة نهضة مصر
(٣) عن الأدب العربى المعاصر ص٧٠.

والأصل فى تعريف اللغة أن يكونوا مُهَاجِرين، أو مُهَاجَرين،والبلد التى وصلوا إليها مِهْجر،أو مَهْجر، جاء العرب المهاجرون إلى الوطن الجديد، وهم يطووون جوانحهم على كل مرارات الوطن الأم، وترعبهم خيالات الأمس وعذابه من الجوع وخوفه، والتعصب وحماقاته،والإرهاب وقيوده، والخوف ورعبه، ويتطلعون إلى مجتمع أمن يوفر لهم لقمة العيش، واطمئنان النفس وحرية الحركة والقول، ولم يكن شيء من هذا ميسر لهم فى الأعم الأغلب وبعد أن وطنوا المهاد وآلانوا الوساد – على حد قول د/ بدوى طبانة [1]يحنون إلى موطنهم مفندين أسباب الرضا والسخط،التشاؤم والتفاؤل،القبول والرفض لما يحدث فى بلدانهم مراتع الصبا، يعبرون عن ذلك بأسلوب راق، يغلب عليه الجدة والإبداع،

وقد تطلعت القلوب والعقول لهؤلاء الصفوة لمعرفة ظروف حياتهم وانعكاسها على إبداعهم، وبصمتها على كيانهم الفكرى والأدائى "والأدب دائماً فى طليعة الفنون التى عبرت بها الإنسانية عن نفسها وتحدثت فيه عن تصوراتها، وحملته أصداء معارفها واحساساتها منذ عرف الإنسان هذا اللون من ألوان التعبير اللغوى الممتاز"[2]

عاش المهجريون فى وسط لغوى مختلف، وأدى بهم الاحتكاك بالأدب وبالحياة الإنجليزية أو ألأسبانية أو البرتغالية إلى اتساع أفقهم، فكانوا يتحدثون إحدى هذه اللغات الثلاثة أو اثنين منها أو كلها فى بعض الحالات ؛ وفتح هذا أعينهم على التيارات الأدبية حولهم،فأفادوا منها، وعبروا عن إبداعهم فى لغتهم الأم بأشكال جديدة، وأحياناً متطرفة تأتى فى طريقها على المتعارف عليه من تقاليد أدبية موروثة.

(١) سوانح وآراء فى الأدب والأدباء لونجمان ١٩٩٧ ط ١ صـ ٣١٦
(٢) المرجع السابق صـ ٣١٩

ولا شك أن الحرية التى منحت لهم حلقت بهم فى أُفق رحب، بعد مطالعتهم على الثقافة الأجنبية بشكلها المغاير لما ألفوه من مؤلفات

" امتزجت هذه الثقافات والآداب فى نفوسهم امتزاجاً أدى إلى أدب جديد فيه ملامح من الشرق والغرب "[1]

إن الإطلاع على الآداب المغايرة ثراء، سواء تسرب هذا الثراء الفكرى إلى إبداع الأديب فزكاه، أو تمثل فى اختياره لبعض الأعمال فترجمها، أو تأثر به فى شكل متوارٍ خفى ندركه ولا نستطيع تحديده.

والأدب المهجرى.... شية بارزة فى سُدة الأدب العربى ولحمته، لخصاله الفريدة وسبكه المغاير بل إنه " يتسامى صرح الأدب المهجرى العربى فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى يكاد يشكل مع معطيات أدبية مهجرية من مغتربات أمريكية أخرى أندلس أدبية جديدة " [2]

السمة الغالبة عليه هو التجديد الذى كان مواكباً للأحداث العالمية فما كاد يطل علينا القرن الثامن عشر حتى " تحطمت القوالب،وظل كل شىء فى مرحلة انتظار ليصنع من جديد، فبعد أن كانت منتجات الفكر مجهزة على حسب قواعد ثابتة يصاحبها قليل أو كثير من التوفيق فى تطبيقها. أصبح كل منها اختراعاً خاصاً فيه

(١) محطات معاصرة د/ محمد إبراهيم الطاووسي صـ ١٧٤
(٢) أعلام ورواد فى الأدب د كاظم حطيطة دار الكتب الحديثة صـ٣٥٩

نوع من الحكم الصادر من المؤلف على طبيعة الفنون الأدبية فى قيمتها ومعناها"[1]

وهذا متحقق بإبداع مدرسة المهجر مما يفسر الحفاوة بنتاجهم الشعرى،

"إن شعراء المهجر يمتلكون نزعة روحية غالبة تظهر فى تأملاتهم فى الكون وأسراره، واستشرافهم إلى الأفاق الروحية البعيدة وإلى الله يضرعون إليه بالشكوى ويلتمسون منه النجاة من خضم الحياة المادية الجارف وشرورها" [2]

ذاتية الأسلوب فكل شاعر يستخدم أسلوبه الذى هو قطعة من ذاته، فقد تنحى المهجريون عن أردية ألأساليب القديمة ونظر فى مرآة ذاته ؛ فرأى الظاهر والخفى، فقص على ملامحه الشخصية وبثها.

لـــذا فكل شاعر متجدد فى منطقة التجدد الذاتى لذاته انتشر شعر المطولات وهو ذو طابع ملحمى " المواكب لجبران " "على بساط الريح " فوزى المعلوف، "الحكاية الأزلية " "والطلاسم" إيليا أبو ماضى، " الربع الأخير" الشاعر القروى، "أحلام الراعى " إلياس فرحات، " معلقة الأرز" نعمة قازان.

وإذا كانت تلك الملاحم ظهرت فى المهجر فإن بلاد العرب أيضاً تبدت فيها تلك الظاهرة، فهناك "الجحيم " للزهاوى، "الأعراف" للهمشرى " ترجمة شيطان" للعقاد.

وشكل القصيدة يدل على ثورتهم على قيود القديم فى هيكل القصيدة، ورسالتها التعبيرية، بل فى موسيقاها ولغتها مطالبين بتهديم حوائط الشكل، وأرادوا تغيير الهيكل نظرياً وتطبيقياً، واستحضروا الهيكل الجديد للموشحات الأندلسية،

(١) ما الأدب جان بول سارتر مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ صـ١٧٧
(٢) محطات معاصرة ، د/ محمد إبراهيم الطاووسي ١٧٦

متخليين صراحة عن العروض وملحقاته " فلا الأوزان ولا القوافى من ضرورات الشعر كما أن المعابد والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة [1]

لجوئهم إلى الطبيعة إذا كان الإحتماء بالطبيعة سمة بارزة فى الشعر الرومانسى والذى تشبع به شعراء المهجر، فإن النقاد قد اختلفوا فى صدق لواذهم بالطبيعة، فبينما رأى البعض أنهم اتجهوا إلى الطبيعة

" علهم يجدون فيها ملاذاً من هجير الحياة وعذاباتها وآلامها وصولاً لما تجيش به نفوسهم من أحاسيس، ويندمجون فيها، ويضعون عليها الحياة، حتى صارت عناصر حية فى تجاربهم الشعرية تتفاعل معهم ويتفاعلون معها – على حد قول د محمد الطاووسى[2]

الوحدة العضوية... رنا المهجريون إلى تحقيق الوحدة العضوية فى أشعارهم، وهو ما نلمسه إلى حد كبير، إذ أوقف المبدع إبداعه على غرض واحد، وربما استندوا فى تحقيق ذلك إلى المبدعات الغربية، فإبداع الديوان الذى واكب تواجدهم لم يستطع أن يحقق ذلك بشكل بيِّن

استبطان الذات..... من السمات المميزة للمهجريين استقرائهم ذواتهم بحرية، والتحرر المطلق فى مواجهة الذات والفن والكون تحرراً قد شارف تخوم التحرر الدينى، فاستبطان الشاعر لنفسه وتعمقه فى فهم اسرارها وخفاياها، وانعكاس هذا الاستبطان النفسى فى مشاركة وجدانية للناس يضفى عليها الشاعر من تجاربه وخواطره ويشاركهم انفعالاتهم ونوازعهم...

رومانسية الرؤى والميل إلى القتال الشعرى: إذ فى الشعر وبالشعر أرادوا تحقيق ما عجز الواقع عن تمكينهم منه،

(١) الغربال ميخائيل نعيمة صـ٩٥
(٢) محطات معاصرة صـ١٧٦

الإحساس بالاغتراب الروحى والمادى.....لازم لشاعر المهاجر حنين مستديم لبلاد المنشىء..... إذ أظله أملاً لا يفارقهم بانصلاح الأحوال فى بلادهم الأم، التجول فى النفس الإنسانية والإنشغال بها...بداخلها وخارجها،رفض الخطابية الزاعقة، والميل إلى الهمس والنجوى لتحقيق المراد من التعبير عن الذات، الميل إلى الغموض وغيوم المراد بما يتناسب مع غموض الحياة وإبهامها، وعدم إعطاءها كل خفاياها ومكنوناتها

وتظل مدرسة المهجر شأنها شأن المدارس الأدبية أجادت فى التنظير وأبدعت فى وضع القوانين، لكن عند التعبير..
من المبادىء ما تحقق على جزئيات الإبداع، وكان عمق التصور منتشر الشذى ومنها ما بهت حلوله فى الواقع الشعرى، فلم يزهو ولم يزه وظل مؤطراً بإطار حقائق فنية ؛ مشكلة لعصر الإبداع شأنها شأن باقى العناصر منها ما هو بعيد الغور ومنها ماكان على السطح طافياً بلا جذور، والشاعر المهجرى عاد " إلى ذاته وفتش عن ملامح وجوده، ولم يتخذ الشعر صناعة بيانية، ومهارة فى إقامة النظم وتسوية القوافى، بل أمن به رسالة إنسانية تعبر عن الخير والجمال، وتهدى الناس إلى سبيل الحياة الرحبة المتفتحة، وآمن بنفسه رسولاً لبنى قومه [1]

(١) التجديد فى شعر المهجر د محمد مصطفى هدارة دار الفكر العربى ص٣٢

الفصل الأول

الشاعر والتجربة

١٨٨٣ - ١٩٣١

ولد فى ربى لبنان المتسع، فلا قيود ولا حواجز "وما ينفك الضباب فى أجوائها يتهادى رسائل تتواصل بين الأرض والسماء، وقد شب فى بشرى شمال لبنان محاطاً برونق الإخضرار والأفق أو المشاهد لوحات طبيعية أو صور فنية أو ينابيع إلهام وجمال خالد[1] تشبعت نفسه بهذا الجمال الإلهى، جبال وحقول وديان وتلال فانطلقت موهبته فى الرسم فما كاد يلتحق بالمدرسة حتى فاق أقرانه وبزهم شهرة لإبداعه. ووالده هو الزوج الثالث لأمه فقد أعقبت من زيجة قبله أخوه بطرس، وكان والده حاد المزاج متقلبه، قليل الكسب،فأخذته أمه هو وأشقاءه بطرس،سلطانه،مريانه، وهاجرت إلى بوسطن بأمريكا، فقد عاش فى كل من لبنان ثم بوسطن ثم نيويورك خمسة عشر عاماً فى كل منها، ثم تعلم الإنجليزية والفرنسية،

ثم عاود الالتحاق بمدرسة الحكمة ببيروت وعاش مع أبيه وتتلمذ على يد الخورى يوسف حداد، ذلك الذى عمق رؤيته للجمالين.. الطبيعى واللغوى.. ثم يتعلق بالأمريكية " مارى هيسكل " التى تعرف عليها فى أحد معارضه، ثم يصدر كتابه " الموسيقى " ويتبعه " عرائس المروج "

ثم تتكفل مارى بدراسته لأصول الفن فى باريس لما لمسته من نبوغه وتميزه فتثقل موهبته، ويلتقى الصفوة مثل النحات يوسف الحويك، الكاتب أمين الريحانى، ثم يعاود إلى بوسطن ويصدر كتابه

---

(١) أعلام ورواد فى الأدب العربى د كاظم حطيط صـ٣٦٠

" الأجنحة المتكسرة (١) التى تثير ضجة فى الأوساط ألأدبية، ثم يصدر واسطة عقده الإبداعى " المواكب " ثم " العواصف" (٢)

ثم يشارك مع النخبة ميخائيل نعيمة، نسيب عريضة، أمين الريحانى، فى تشكيل الرابطة القلمية التى كان لها أثرا وتأثيراً فى الحياة الثقافية والأدبية، إذ كان القائمون عليها أسعد حظاً فى النظم من أصحاب "العصبة الأندلسية " وأرى أن ذلك يرجع بشكل أو بأخر إلى المستوى المعيشى المرتفع فى الشمال- ولا شك أن المستوى الاقتصادى المرتفع يؤثر فى الإبداع كما يؤثر فى السلوك غالباً – إذ مكنهم من الإلمام بالتراث وفهمه، فحينما هجروه..هجروه لنشدان الجديد وليس جهلاً به أو ضعفاً عن اللحاق بأهله.... بل كانت رؤيتهم له لا تغمطه ولا تنتقصه بل تتفهمه وتدرك انحساره عن قضاياهم، وما يهمهم يقول جبران:

" لكم لغتكم ولى لغتى، لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق، ولى من لغتى نظرة فى عين المغلوب ودمعة فى جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن، وإشارة فى يد السموح الحكيم. لكم منها ما قاله سيبويه وألأسود وابن عقيل. ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملين. ولى منها ما تقوله الأم لطفلها، والمحب لرفيقته، والمتعبد لسكينة ليله... لكم لغتكم ولى لغتى، لكم لغتكم عجوزاً مقعده، ولى لغتى صبية غارقة فى بحر من أحلام شبابها. وماذا عسى أن تصير إليه لغتكم، وما أودعتموه لغتكم عندما يرفع الستار عن عجوزكم وصبيتى أقول إن لغتكم ستصير إلى لا شىء، أقول إن السراج الذى جف زيته لن يضىء طويلاً ،أقول إن الحياة لا تتراجع إلى الوراء.. أقول إن أخشاب النعش لا تزهر ولا تثمر.

(١) المعروف أن جبران سقط على كتفه صغيراً فأُصيب بإعاقة ولم يعد ينمو وكان تكوينه الجسمانى مختلفاً جراء ذلك الحادث _أعلام ورواد –

(٢) النص الأدبي فى العصر الحديث بين الحداثه والتقليد عبد الرحمن عبد الحميد على – دار الكتاب الحديث ص ٦٧ –بتصرف–

أقول عن ما تحسبونه بياناً ليس بأكثر من عقم مزركش، وسخافة مكلسة.. أقول لكم إنه لا ينقضى هذا الجيل إلا ويقوم لكم من أبنائكم وأحفادكم جلادون "(١)

ثم يحلق بأجنحة سليمة فى العالم ألأمريكى المتكسر مستمتعاً بحياته ؛ جانياً ثورة عظيمة من مؤلفاته التى ترجمت لعدة لغات خاصة كتابه " النبى " ثم يعمق شعوره ويتسع مداره فتخطى بلد المنشأ "لبنان " وبلد المهجر "امريكا " واتسع توجهه الإنسانى ليشمل الإنسانية ؛ فوجه خطابه لها فى شخصية ثابتة تنفر من الظلم والظالم. تؤيد المظلوم وتشمئز من المستسلم الخانع تريد أن ترتد الإنسانية إلى مظانها الأولى من الحرية الملتزمة، وظل ملتزماً هذا المنزع الإنسانى موقفاً وآراءً، عمقه ألألم الذى زاده " إيماناً بالحياة وسمو استلهامها، فإذا الوجود عنده استمرار فى العطاء والإبداع (٢) فحياته معزوفة راقية " ينسجم الكون كله – عند جبران – فى إطار واحد وفى بوتقة واحدة ويستمد كل شىء فى الوجود حقيقته وجوهره من صلته بالنفس الإنسانية فهى مصدر كل معرفة حق بالوجود وهى جوهر الوجود "(٣)

كانت حياة جبران الاجتماعية ثرية متجددة، فقد تعرف على الإيطالية ميشلين ثم بربارة يونغ التى عملت لديه سكرتيرة ونشرت كتاباً بعد وفاته تحكى ذكرياتهما.

---

(١) التجديد فى شعر المهجر د محمد مصطفى هدارة صـ٥٨-٥٩ ط١ دار الفكر العربى ١٩٥٧-

(٢) أعلام ورواد د/ كاظم حطيط صـ ٣٦٢

(٣) محطات معاصرة د/ محمد إبراهيم الطاووسي ١٨٤

ثقافته وأثرها فى التجربة

حاز جبران من الثقافة والرؤية الذاتية والنظرة الكونية ما أهله لقيام بدور هام وحيوى فى الحياة الثقافية والأدبية،وقد أمدته لبنان بزاد وافر من هيكلها الاجتماعى، ومناخها الثقافي، وجوها الطبيعى فالطبيعة التى شب فيها جبران، وما امتاز به جعلت ما يخطه مميزاً يقول د/ أنس داوود " لقد كانت البيئة الطبيعية التى تلقت الشعر العربى – فى لبنان – تختلف كل الاختلاف – عن الصحراء الحافية القاسية، فثمة جبال وسهول ومراع وغابات.. إلى أن يقول " ولقد كانت طاقات الإحساس بهذه الطبيعة تنصب كلها قبل قرن ونصف قرن فى الشعر العامى وفى الحكايات الشعبية وهذا يفسر حيازة الطبيعة أو تقديسها للجزء الأكبر من الشعر المهجرى[1]

وقد اتقن جبران اللغة الإنجليزية – كما قيل– والفرنسية،وطالع إبداعات بشرية تنتمى لأفكار واتجاهات مختلفة، وتواصل هو والأدباء الأخرين بشكل جيد مع الرومانتيكية،حتى قيل إنه تأثر باتجاهين وبدى أثرهما واضحاً فى إبداعه....إبداع "نيتشه " الألمانى هكذا تكلم زاردشت "، اللاهوت الرومانسى امرسن، كذلك شغف بإبداع روسو، لامارتين، هوجو، سانت بيف، تين، شكسبير، شيلى، كل ذلك أكسبه ثقلاً فى نواحى الأداء وقد شغف " بوليام بليك " الذى تأثر به تأثراً عظيماً، وود لو يكون مثله مبدعاً فى الرسم والأدب وأخذ نفسه بالتعلم والتدريب حتى كان له ما أراد واتقنهما معاً، وحاز شهرة واسعة فى وسط نخبتهما وكان نهماً بالقراءة والمطالعة، ولا شك أن تلك المطالعات نمّتْ فكره، وطورت إبداعه، وميزته بالجدة والطرافة وهذه القراءات والمطالعات المختلفة أثرت

(١) الطبيعة فى شعر المهجر دأنس داوود الدار القومية للطباعة والنشر صـ ٣٠

شخصيته وأثرت فيها، فتأرجح بين شخصية مستقرة الإيمان والتفاؤل... وبين شخصية متزعزعة الإيمان والتشاؤم..... ثم سرعان ما يعاود لخطوطه الفطرية. يقول جبران: من منبع النيل إلى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجاً مع صراخ الهاوية. ومن أطراف الجزيرة إلى جبهة لبنان تمتد إليك الأيدى مرتعشة بنزعات الموت. فالتفتى أيتها الحرية وانظرينا... فى المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة البائسة، وفى الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك،

وفى المحاكم والمجالس تستغيث لك الشريعة المهملة، فاشفقى أيتها الحرية وخلصينا " [1] ففى مناجاته للحرية نجد الإستسلام والرضا، وفى تطور للفكر والشخصية نجد تبرم ورفض الاستكانة والعصيان.

يقول جبران :

هل لنفسى يقظة بعد الهجوع لتُرينى وجه ماضىٍّ المخيف ؟[2]

كان رهيف الحس رقيق الشعور متواصلاً مع الإنسانية " لقد واجه فى بداية حياته صعوبة العيش، ولكن سوء أحواله لم يجعله يستسلم لليأس والقنوط، لإن طموحه كان أقوى من تشاؤمه، فظل يعمل بجلد وجد ومثابرة حتى تألق نجمه، وبرز اسمه، وابتسمت له الأيام" [3]

ثم أصاب الرخاء فهدأت ثائرته، وآب إلى السلام وتفهم الأوضاع، وصار أكثر إلتحاماً بالأخرين " إن المشكلة لا تهمه إلا بمقدار ما تؤثر فيه، وتثير مشاعره " [4] فبدلت مشاعره وبعد أن كان ساخطاً على أبناء قومه تعاطف معهم" وتغيرت نظرته إلى قومه من السخط عليهم إلى الرضا عنهم، فبعد أن كان يعيب ضعفهم واستسلامهم،

(١) الأرواح المتمردة جبران خليل جبران صـ ١٢٣.
(٢) المرجع السابق صـ ١١٢
(٣) جبران بين التمرد ومصالحة النفس صـ٥٤ عبد العزيز النعمانى الدار المصرية اللبنانية
(٤) المرجع السابق صـ ٣٤

أصبح يعفو عن أخطائهم، ولا يرى إلا محاسنهم وطيبتهم وحكمتهم، التى كان يزعم أنه يأخذهم عليها، بل كان يختلق الأعذار لجهلهم وضعفهم، ويكيل لهم الثناء عليهم والإعجاب بهم " (١)

وبعد أن كان يؤمن بطلسمة الحياة وعدم فهمها وغموضها قائلاً:

" الحياة محجبة مصونة كما أن ذاتك الكبرى محجبة مصونة "صار يتكلم عنها بتفاؤل وأمل " إن استطعت أن تحدثنى عما هو الموت أخبرتك عما تكون الحياة".

ومن الأشياء التى منحت ثقافته أبعاد واتجاهات مختلفة أنه داوم على مطالعة القرآن الكريم، والإنجيل، والشعر الصوتى، وأعجب بالحكمة العربية حكم الأمام على بن أبى طالب ﷺ.

وهذا التحصيل الدائب للأفكار، والرؤى المغايرة ؛ وسم إبداعه بسمات منوعه إذ نرى إبداعه منكفىء على التميز ؛ يمده للتعبير عنه معين لغوى ثر لا ينضب. وقد حاز الثرائين: الثراء المادى من مؤلفاته ورسوماته اللذان بدأ يدران عليه مبالغ باهظة حتى أنه أوصى لأهل بلدته بريعهما ثم كانت مثار خلافاً فى المحاكم... والثراء الفكرى.. فأصدركتب الموسيقى ١٩٠٥، عرائس المروج ١٩٠٦، الأرواح المتمردة ١٩٠٨،

دمعة وابتسامة١٩٠٩،المجنون١٩١٨، المواكب ١٩١٩.. وغيرها من اصدارات دالة على قدرته وإبداعه، وإذا كان هناك قامات طويلة أغفلها المؤرخون، وطمرتها الأهواء، وأسقطتها ذاكرة المؤرخين حقداً أو كسلاً أو سهواً ؛ فإن جبران بم امتلك من مقومات شخصية، وحيثية اجتماعية جعلته دوما تحت الشمس فقد عاش ينعم فى مظاهر الترف والرفاهية، دائب النشاط الإجتماعى والفكرى والإبداعى والمنهجى.... عاش مترفاً ثرياً... أينما حل وجد الحفاوة والتقدير، لكنه

(١) جبران بين التمرد ومصالحة النفس صـ ٥٩

فى رحلة العودة وبعد أن هاجمته الأمراض وأتعب قلبه طول التحصيل ودَّ لو أنه " زوج سعيد يهنأ بحب إمرأة واحدة، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت من الجسد المريض الخاوى والروح المكدودة المرهقة " (١)

وأرسل رسالة ١٩٢٠ لصديقه ميخائيل نعيمة منها " هذا القلب فقد وزنه وقافيته"(٢) وعلى اختلاطه بالمستويات الملتزمة والمستويات المنفلتة، لم يخلو من الأخلاق، فقد أخذ من كل شيء قدره ولم يهرول منساقاً وراء قول فيكتور هوجو " الفن لا يحتمل القيود، فهو يجنى قطوفه من حديقة الشعر حيث لا توجد فواكة محرمة"(٣) بل إلتزم جبران الخلق فى أدائه وتعابيره وأحياناً قد يلامس الروحانيات بهمسها الراق فيكون

" هناك روح مبنى على المناجاة الجميلة "(٤)

شغف جبران بالطبيعة تبدى فى أشعاره إذ مزج بينهما مزجاً ذاب معه كل منهما فى كيان الأخر، فالإنسان هو الطبيعة، والطبيعة هى الإنسان فهو لا يؤمن إلا بأصل واحد وخليقة واحدة وقانون واحد وحب واحد أبدى لا نهائى "(٥) فهو يرى أن الإنسان يتحد مع أطراف الطبيعة.. شجر –غيوم – نهر –شلال – وهذا يرجع لسيطرة النزعة الرومانسية التى تتوحد مع الطبيعة تقول عنه بربارة يونج " إن

(١) روائع جبران ألاعمال الكاملة د/ ثروت عكاشة الهيئة العامة للكتاب ط٥ صـ ٩
(٢) جبران بين التمرد ومصالحة النفس عبد العزيز النعمانى صـ ٣٢
(٣) الأعمال الكاملة صـ ٤٣
(٤) الشعر القصصى حسن محمد دار النهضة العربية ط١ ١٩٨٠ صـ٢٥١
(٥) أعلام ورواد صـ٣٦٢

وحدة الإنسان والطبيعة فى الصخر فى الغيوم، فى الشجر فى النهر والشلال، تتضح أبداً بشكل ظاهر فى جميع إنتاج قلمه وريشته " (١)

ولعمق ثقافته تنازعته نزعتان: نزعة فلسفية عقلية، ونزعة صوفية روحية وتناثر مردودهما فى كتاباته. فجبران كان شاعراً مجيداً ومصوراً بارعاً،

له من قوة الخيال ودقة الإحساس ما أتاح له الإجادة فى وصف الطبيعة وتمثيلها بشتى الصور والألوان،ووافر التشبيه والاستعارات والكنايات، والحق يقال إنه لم يك من أولئك الكتاب أو الشعراء ؛ الذين قصروا كلامهم على مجموعة من القوالب والعبارات المبتذلة الجارية على كل لسان ؛ بل غرف من قرارة ذاته وابتدع بقوة قريحته صوراً تجلت فيها ذاتيته "(٢) وهنا يطرح سؤال نفسه هل هيام جبران اللافت بالطبيعة يشير إلى دلالة ذاتية لديه ؟ نعم توحد جبران بالطبيعة وصبا إلى الجمال الأزلى الذى رسمه بالريشة تارة، وبالكلمات أخرى، نراه يحب الحقول المجسمة للطبيعة بشكل بيِّن إذ أن " كل شيء يتكلم فيها عن الحب: أغصانها تتعانق وأزهارها تتمايل، وطيورها تتشبب، يرتاح لمشاهدة الجداول والأزهار والغيوم لإنه يرى " الجداول تسير إلى حبيبها البحر، والأزهار تبتسم لعشيقها النور، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادى (٣)

شب جبران فى كنف مُثُل عاش مخلصاً لها إذ " أمن أنه لابد من ممارستها فى الحياة، فالتوقف عند كتابتها لا يعنى شيئاً لكن اقترانها بالتطبيق فى الحياة اليومية هو الذى يعطيها بعدها الحقيقى " (٤)

---

(١) هذا الرجل من لبنان ترجمة سعيد بابا طبع دار الأندلس صـ ٥٨
(٢) الأعمال الكاملة صـ ٤٤
(٣) المرجع السابق صـ ٤٧
(٤) أعلام ورواد صـ ٣٦٢

جبران آراء وأفكار: نثر وشعر

شغل جبران حيزاً كبيراً من الساحة فقد استطاع أن يبنى من نفسه شخصية أدبية متعددة الاتجاهات فى مجالى الفن والفكر، وقد لفت النظر فى حياته وبعد وفاته إذ انسابت الأقلام ترصد قفزاته التطلعية التجديدية فى الأدب واللغة. وله آراء كثيرة تعكس وجهة نظره فى الحياة ويعد كتابه

" البدائع والطرائف"" (١) حاوية لكل آرائه وأفكاره. ومن آرائه التى تناثرت فى المبدعات العربية وصارت مرجعية يستدل بها ألأدباء والنقاد حتى إن "نعمه كازان " أعلن بأنه سيستند فى قوله إلى قول جبران إذ مثل بالنسبة له مرجعية القدامى لا الكسائى " (٢)

يقول جبران: إن النظم الشعري والنثر عاطفة وفكر، ما زاد على ذلك فخيوط واهية، وأسلاك منقطعة، لكم لغتكم ولى لغتى (٣) فقد استطاع جبران تطويع اللغة العربية وتهذيبها، وحسن صياغتها، وتحويل عباراتها النثرية إلى قصائد تحمل رنين الشعر، وأن تحمل أوزانه وتلونها بما حملته من ألق العواطف، وهمس النبضات، وتكثيف الدلالة الإيحائية.

وجبران شارك " كتاب المهجر العمل على تحرير اللغة من قيود الشكلية، وتجديد ألأساليب اللغوية دون الخروج على قواعد اللغة، وتبنى فنون أدبية حديثة كالشعر المنثور "(٤)

وقد أمن جبران بالإنسان وقدراته وهى من الثوابت لديه،

(١) أعلام ورواد صـ ٣٦٢
(٢) التجديد فى شعر المهجر د محمد مصطفى هدارة دار الفكر العربى ط ١ صـ٥٦
(٣) بلاغة العرب فى القرن العشرين جمع محى الدين رضا صـ٥١
(٤) المجموعة الكاملة لجبران جـ ٢ صـ ١٥٦

يقول جبران " إن الإرتقاء سنة البشر والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة" (١) و تمكنه من اللغة الإنجليزية اكتسبه من شكسبير، ومن مارى هاسكلى، ومن التوراة، إلا أنه لم يك راضياً عن تحصيله وإنجازه يقول: " إن لى أسلوبى الخاص باللغة الإنجليزية، لكنى لم أتمكن قط من تعبير اللغة الإنجليزية بالشكل الذى عبرت به اللغة العربية، ففى العربية قد خلقت لغة جديدة ؛ داخل لغة قديمة كانت وصلت حداً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة "(٢) لذا كان يتأثر بما يرى ويسمع ويشاهد ويرتقى بنفسه ويجود عمله واستطاع الجمع بين وسيلتى التعبير المسموع والملموس " الشعر والرسم إثر أمنية تمناها إذ سمع عن الشاعر الفنان الإنجليزى " ويليام بليك " وكيف التقى فيه الشعر والتصوير... ومن هنا فتن جبران بالشعر وتمنى لو اجتمع فيه الفنان والشاعر كما اجتمع فى يليام بليك " (٣) وقد امتلأ جبران بفيض الشعور فسيطرة المحبة على فكره ودفعته إلى التطلع لمغالبة الواقع ويدعوا " عن إيمان عاطفى قوى عند أجمل وأنبل مكان تستظل به البشرية على نحو ما يصور ذلك جبران فى قوله.. لا تقنطوا... فمن مظالم هذا العالم ما وراء المادة من وراء الغيوم، من وراء الأثير من وراء كل شىء قوة، هى كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة.. سوف تمر نسمات لطيفة تحمل بذوركم إلى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة " (٤)وتبلورت فكرة التجديد الشعرى عند جبران بجزئياته و " ضرورة تجديده وعن وسائل هذا التجديد أن يؤصل كثيراً من

(١) المجموعة الكاملة لجبران ٣٤
(٢) المرجع السابق ٣٤
(٣) المرجع نفسه ٣٥
(٤) السابق جـ ٢ صـ١٤٣ وما بعدها

المفاهيم الجديدة، ويكون ما يشبه أن يكون نظرية متكاملة فى الشعر من حيث طبيعته وغاياته ووسائله.....

وسأعرض بعض الآراء والأفكار له ولمناظريه...

مما جعلنى أقصد إلى إيرادها دون تعليق ؛ إذ تمثل رأى الصفوة من النقاد والأدباء فى هذا الأدب المهجرى المميز، وهم مختلفون فى الثقافة والفكر والإنتماء، متفقون على قول كلمة حق فيمن شيد لبنة فى سرح الأدب العربى واحتل الربوة فى سرح الأدب المهجرى...

يقول عنه د شوقى ضيف: " إنه النبع الذى فاض منه النغم.وقد دعا إلى التحرر من اللغة التقليدية فى الشعر وقبس من الرومانسية الغربية وما يجرى فيها من ألم وتأملات فى الطبيعة والوجود. "(١)

إن حيازة جبران للثقافات المختلفة، واطلاعه على ما يستجد فى الأدب جعله يتطلع إلى التجديد ويدير ظهره للموروث التعبيرى فى ظل احتفائه بالإتجاه الرمزى.. وبالتوراة ومؤلفات طاغور وعمر الخيام.

يقول عنه د الطاهر مكى " نادى بالمحبة وثار على القيود وعبد ذاته وأهواءه واندفع وراء الشبهات واغترف فى إبداعه من قرارة نفسه، وأكثر صوره مستمدة من الفجر والظلام والنور " (٢) وكان رحمة الله عليه د محمد احمد العزب اتجاهه تجديدياً مثل جبران

لذا أثنى عليه قائلاً: أطلق جبران صيحته العاتية فى وجه اللغة التقليدية فزلزل بهذه الصيحة كثيراً من جوانب التسليم والإتباع فى فهم اللغة، وفى طبيعة ما ينبغى أن نسددها إليها من دور تؤديه أداء معاصر فينبض بدفء المعاناة

(١) فصول فى الشعر ونقده د شوقى ضيف ط٣ ص ٢٩٢دار المعارف

(٢) الشعر العربى المعاصر الطاهر احمد مكى روائعه ومدخل لقراءاته ط٣ دار المعارف ١٢٣ص

والصدق(١) والمعروف أن قيمة الأدب " فى بنائه اللغوى فهو فن القول، بمعنى القدرة على تركيب ألفاظ اللغة فى طرق مخصوصة، تمنحها الثراء فى الدلالة والإيحاء وترتفع بها عن التعبير الحرفى إلى التعبير الفنى غير المباشر الذى يفجر طاقاتها فى التعبير (٢)

يقول عدنان الذهبى عن جبران " وفهم جبران هو فهم لأديب درس الطبيعة والحياة أكثر من درسه على أساتذة الفكر والفن وأعلامهما، أديب جل ما فعل به اصطدامه بالثقافات الفلسفية والفنية أوصله إلى آفاق هذا النشيد الفلسفى الأدبى الذى استأثر به أيما استئثار وهو نشيد الإنسانية (٣)

ثم تبدأ رحلة العودة بمرضه، ويجاهد ليخرج كتابه " حديقة النبى" ويتوفى قبل أن يخط كتابه " موت نبى "ثم مات فنقل إلى لبنان وكتب على قبره " جبران يعيش بيننا "

---

(١) عن الأدب العربى المعاصر مدارسه وأعلامه صـ ٧٢

(٢) الصورة الفنية فى شعر لبيد رسالة ماجستير صلاح مصيلحى على عبد الله اشراف د النعمان عبد المتعال القاضى ١٩٨٠كلية الآداب جامعة القاهرة صـ١٢٢

(٣) الأعمال الكاملة ٤٣

الفصل الثانى

عناصر التجربة الإبداعية فى قصيدة المواكب
قراءة جديدة

الخير فى الناس مصنوع إذا جبروا ... والشر فى الناس لا يفني وإن قبروا
وأكثر الناس آلات تحـركها ... أصابع الدهر يوماً ثم تنكسر
فلا تقولن هـذا عالـم علـم ... ولا تقولن ذاك السيد الوقر
فأفضل الناس قطعان يسير بها ... صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر
ليس فـى الغابـات راع ... لا ولا فيها القطيع
فالشتـا يمشى ولكـــن ... لا يجاريه الربيع
خلـق الناس عبيـــداً ... للذى يأبي الخضوع
فإذا ما هـب يومـــاً ... سائراً سار الجميع
أعطنـي النـــاى وغن ... فالغنا يرعي العقول
وأنيـن النـــاى أبقـــى ... من مجيد وذليل
وما الحياة سوى نوم تـراوده ... أحلام من بمراد النفس يأتمر
والسر فى النفس حزن النفس يستره ... فإن تولي فبالأفراح يستتر
والسر فى العيش رغد العيش يحجبه ... فإن أزيل تولي حجبه الكدر
فإن ترفعت عن رغد وعـن كدر ... جاورت ظل الذي حارت به الفكر
ليس فـى الغابات حـزن ... لا ولا فيها الهموم
فـإذا هـــب نسيـم ... لم تجئ معه السموم
وغيـوم النفس تبـــدو ... من ثناياها النجوم
أعطنـي النـاي وغـن ... فالغنا يمحو المحن
وأنيـن النـاى يبقـــي ... بعد أن يفني الزمن
وقل فى الأرض من يرضي الحياة كما ... تأتيه عفواً ولم يحكم به الضجر

لذاك قد حولوا نهر الحياة إلى أكواب وهم إذا طافوا بها خدروا
فالناس إن شربوا سروا كأنهم رهن الهوى وعلى التخدير قد فطروا
فـذا يعربد إن صلى وذاك إذا أثرى وذلك بالأحلام يختمر
فالأرض خمارة والدهر صاحبها وليس يرضي بها غير الأولي سكروا
فإن رأيت أخا صحو فقل عجباً هل استظل بغيم ممطر قمر ؟
ليس فـى الغابات سكر من خيال أو مدام
فالسواقـــي ليس فيها غير أكسير الغمام
إنما التخدير ثـــدى وحليب للأنام
فـإذا شاخـوا وماتـوا بلغوا سن الفطام
أعطني النـاي وغـن فالغنا خير الشراب
وأنيـن النـاى يبقـى بعد أن تفني الهضاب
والدين فى الناس حقل ليس يزرعه غير الأولي لهم فى زرعه وطر
من أمل بنعيم الخلـد مبتثر ومن جهول يخاف النار تستعر
فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا رباً ولولا الثواب المرتجي كفروا
كأنما الدين ضرب من متاجرهم إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا
ليس فـى الغابـات دين لا ولا الكفر القبيح
فـإذا البلبـل غني لم يقل هذا الصحيح
إن دين الناس يأتـــي مثل ظل ويروح
لم يقم فى الأرض ديـن بعد طه والمسيح
أعطني الناي وغـــن فالغنا خير الصلاة
وأنين النـــاى يبقـى بعد أن تفني الحياة
الخير فى الناس مصنوع إذا جبروا والشر فى الناس لا يفني وإن قبروا
وأكثر الناس آلات تحـركها أصابع الدهر يوماً ثم تنكسر

فلا تقولن هذا عالم علم ولا تقولن ذاك السيد الوقر
فأفضل الناس قطعان يسير بها صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

اشتهرت المواكب شهرة كبيرة إذ توفر فيها عصب الشعر المهجرى وهو "التجديد" إذ مستها يد التجديد فى جوانبها المكونة ؛ العاطفة – الإيقاع الموسيقى – المعانى – والأفكار– مكونات التجربة – الصورة الشعرية –التصوير الفنى – اللغة والأسلوب

ففى مطلع القصيدة ينص الشاعر على أن الخير والشر يعتملان فى النفس الإنسانية، وأن الخير مصنوع فيها دخيل عليها، بينما الشر متأصل فى ألأنفس مركز فى نسيجها، ولا يفارقها حتى لو ماتوا – وأن أكثر الناس هي آلات يحركها الدهر، ويأتي يوم تنعدم فيه الحركة،– وهذا المعني قد تم تناوله من قبل– وعلينا إذن أن نلغي الألقاب فى دنيانا فليس هذا أفضل من ذاك ولا مجال لتعظيم الناس فى الدنيا فالكل يسير، ومن يقف يندثر فالبشر بطبيعة خلقهم يتساوون وسواسية، وأفضل الناس هم قطعان

(جمع قطيع) يمشون خلف صوت الرعاة، وهنا يسيطر على الشاعر فلسفة التواجد الإنسانى فينظر بنظر ثاقب متخطياً الموقف ويفسر الوجود بنظرة فلسفية.

ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الفن والفلسفة على الرغم من ظهور تباعدهما وقد تبدو (للنظرة السطحية العابرة، أنه لا يوجد شخصان أكثر تباعداً وانفصالاً عن بعضهما،من الفنان والفيلسوف، فالفنان يهتم بالآثار الحسية لجوهر الأشياء... أما الفيلسوف فهو مشغول بالنظر غير العاطفي فى الموضوعات التى تترابط فيما بينهما على أساس منطقي، كما يهتم بالأفكار العامة ومن ثم المجردة.

والفنان من ناحية أخرى معني بوجه الجمال. كما أن الفيلسوف يُعني بتشريح الحقيقة كما أنهما مختلفان فيما يتعلق بأهداف كل منهما.

والشاعر والفيلسوف يلتقيان فى نقاط عدة أهمها استخدام الكلمات وإن اختلفت طريقة الاستخدام عند كل منهما، فالشاعر يستخدم الكنية التى تستنهض الأفكار والمعاني فى الإعراب عن صورة مميزة واضحة القسمات، ويستعين الآخر بالعبارة، التى كثيراً ما تكون عديمة اللون وكليلة بالضرورة عن تحديد المضامين. وللفنان منطقه كذلك، ولكنه المنطق الذي يعني بتنظيم الأشياء أو مطابقة المزاج، وهو منطق المفكر المجرد الذهن، وعلى الرغم من أوجه الخلاف والتباعد القائم بين الفن والفلسفة، فإن ثمة أوجهاً للتشابه والتداخل فيما بينهما، وحسب الفنان بفضل اختياره لموضوعاته وانتخابه لمواده وما يتخلف عن عمله من أثر كلي يصبح ناقداً للحياة وللوجود، وهو فيلسوف بحكم طريقته الخيالية المباشرة (١).

ولعل الغربة الداخلية والخارجية وجهت الشاعر صوب الرؤى الفلسفية فنفذ من المرئيات إلى ما هو أدق وأعمق

ليس فـى الغابـات راع لا ولا فيها القطيع
فالشتا يمشى ولكـن لا يجاريه الربيع
خلـق الناس عبيـداً للذى يأبي الخضوع
فإذا ما هـب يومـاً سائراً سار الجميع
أعطنـي النـاى وغن فالغنا يرعي العقول
وأنيـن النـاى أبقـى مـن مجـيـد وذلـيـل

يثور جبران على ضعف الإنسان ؛ يرفضه ويمقته فينفذ جبران بنظرته الذاتية فى المرئيات فيرى ما لا يراه السطحيون ويتوحد مع الطبيعة بكل ما فيها ومن فيها " فنقرأ شعره ونحس كأننا فى حلم سحرى ونشعر بشيء من التسرية عن أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية لإن الشاعر ينفس عما فى داخلنا بما يجرى على لسانه

(١) (الفنون – والإنسان) تأليف إرون إدمان ترجمة مصطفى الحبيب ط مكتبة مصر ١٩٣٨ صـ ١٢٣ – ١٢٤ .

من أبياته، أو قل من مشاعره واحساساته -على حد قول د شوقى ضيف -(١) وينتقل الشاعر من فكرة فطرة الإنسان على الشر وأصالة وجوده به وفطرته عليه، إلى الحديث عن الطبيعة وجمال الحرية تلك الحرية الخالصة من القيود، وصنف البشر صنفين أسياد وعبيد، حكام ومحكمين.

والحقيقة أن الناس خلقهم الله عبيداً وهو يأبى ويتنزه عن الخضوع جل شأنه، وإذا أراد أو شاء أذهب الجميع.

ثم يقول أعطني الناي وغن، ليدلل على أن الغناء هو المهرب من الأزمات والصراعات المختلفة لبني البشر، وأن الفن أبقي وأكثر خلوداً من هذه الفوارق والألقاب، وهنا مزج لطيف بين الطبيعة وبين الكيان البشرى.. فكلاهما يصيبه التغيير فلا بقاء ولا استمرارية، فبينما الشتاء يولى ثم يعقبه الربيع، فكذلك لا بقاء لمجيد أو لذليل، إنما البقاء للغناء إذ سلم الصدر، وتعافت النفس، ثم فى هذا المقطع ينشد الحرية للإنسان، والإعلاء من شأنه وليس هناك فوارق فكلهم عبيد لله فقط.

وما الحياة سوى نوم تراوده	أحلام من بمراد النفس يأتمر
والسر فى النفس حزن النفس يستره	فإن تولي فبالأفراح يستتر
والسر فى العيش رغد العيش يحجبه	فإن أزيل تولي حجبه الكدر
فإن ترفعت عن رغد وعن كدر	جاورت ظل الذي حارت به الفكر

والفكرة الثالثة: يتحدث فيها عن الحياة ؛ وإنها نوم وأحلام لمن ترك لنفسه هواها وألّه هواه واتبعه ؛ ونلاحظ أن شاعرنا" جبران " يذكر النفس فى هذا المقطع ثلاث مرات كإشارة منه إلى الرغبات والنزوات

ونجد ألفاظ الشاعر تكشف الألحاح على فكرة " السر والحجب "

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر صـ١٤١ دار المعارف ط ٢

إذ أن التغمية والإخفاء وعدم الوضوح.... نسج رومانسى مطروق

وها هي النفس يُحجب سرها ويختفي، فتارة الحزن يستره وتارة الأفراح، والحياة رغد وكدر، أحزان وأفراح، وهما محل اهتمام النفس ومناط الشهوات، ويؤكد فى البيت الأخير من هذا المقطع أنه فى حالة ترفع الإنسان عن الرغد والكدر يظله الله برعايته وعنايته. وهو معني قريب للتصوف أو الفلسفة، ولكن صياغته الشعرية رائعة. فالرغد يوحى بالأفراح والسعادة والرفاهية والحياة الكريمة. بينما الكدر يجمع بين الحزن – والألم والضجر وعدم الرضى، فكل منهما يبعث على تواجد من يشاكله ويحاكيه من باب تداعي المعاني، وتظهر دعوى الشاعر للإنسان بالترفع والسمو ونبذ الخضوع للإحساسين الرغد والكدر، ومقاومة تحكمهما فى الإنسان. وعند ذلك يتمتع الإنسان برضا بارئه

ليس فى الغابات حزن — لا ولا فيها الهموم
فإذا هب نسيم — لم تجئ معه السموم
وغيوم النفس تبدو — من ثناياها النجوم
أعطني الناي وغن — فالغنا يمحو المحن
وأنين الناى يبقي — بعد أن يفني الزمن

وفى المقطع الرابع: يدعوا إلى الإبتهاج والفرار إلى الغناء والإلتصاق به، وفى ثنايا ذلك يسرب معنى التشبث بالحرية حيث إنها مطلب الكمال، فليس فيها حزن وليس فيها هموم، تغرق الإنسان وتقضي على سعادته، فلا إمتزاج بين الحزن والسرور، ويدلل على هذا المعني ؛ بالبيت الذي يرشح معناه فإذا هب النسيم لم تجئ معه السموم، ها هو النسيم العليل إذا جاء إلى الغابات لم تحضر معه الريح السموم... ثم يعود للإنسان وأرقه وهمه الذي يؤرق مضجعه قائلاً: إن النفس تجمع الإثنين معا الغيوم والنجوم ؛ وما يوصمان به من ضدية واختلاف فى الإيحاء، ثم

يعود إلى مهربه الجميل... آلا وهو الفن حيث لا محن ولا أرق، وهو يبقي بعد رحيل الزمن. فليس فيه صراعات ولا قوة ولا ضعف.

وهذه القصيدة من أقوى قصائد جبران دلالة على سمات مدرسة المهجر وعلى فكر ونفسية المهاجر.

وتعبر عن المزاج الشخصي إذ الأنا والذات تشظت فى البشر جميعاً.

وصار جبران صاحب رسالة فكرية عقلية يلضم الكلمات بعضها إثرى بعض ليقنع المتلقي من خلال الحوار الثنائي بصدق ما يقول ؛ ليؤمن مثله به والقصيدة تعتمد على الرؤية الشخصية المبثوثة من خلال حوار معبأ بوجهتى النظر المختلفتين، فالرؤية الذاتية مسيطرة بقوة على القصيدة، وغابت الفنون والأغراض الموضوعية، وما تقتضيه من ترتيب فى الفكر وتسلسل في الأحداث، وسوق البراهين يتلو بعضها بعضا بشكل استدلالي. فالقصيدة ومضات متتالية قد تضوء العواطف كالحزن أو الفرح، الأمل أو الإحباط، أو تطلعنا على الأحاسيس المثقل بها كاهل الرومانسي،

فنرى جبران فى نفيه.. الحزن – اليأس.. ينطلق معبراً عن الطبيعة ملتحماً بها شأنه شأن الرومانسيين " فأدبهم الغنائى كان عاطفياً وخاصاً بوصف الطبيعة (١)

والقصيدة منكفيئة على سمات الفن المهجرى ويعلوا فيها مؤشر الفن بجزئياته مما يرفع من مكانتها " إن الذى يحدد مكانة العمل الفنى ليس ما يحتويه أو يقوله أو يعبر عنه كما قد يتصور البعض، بل وعى الفنان بالتراث الفنى، أو بقول أبسط الذى يحدد قيمة العمل الفنى – إلى جانب الموهبة – هو الفن نفسه[٢]

---

(١) تاريخ ألأدب الفرنسى جوستاف لانسون ت محمود قاسم جـ٢ صـ ٢٣٩

(٢) ١المدخل إلى النقد رشاد رشدى مطبعة الأمانة صـ ٢٣ ١٩٨٤

لذا فالعدسة التى ينظر إليها ويعبر من خلالها عما يجيش فى صدره من حزن وسرور، حب وبغض، يأس وتفاؤل، تراخ ونشاط... عدسة الطبيعة إذ التحم بها، ووجد نفسه فيها

وقل فى الأرض من يرضي الحياة كما تأتيه عفواً ولم يحكم به الضجر
لذاك قد حولوا نهر الحياة إلى أكواب وهم إذا طافوا بها خدروا
فالناس إن شربوا سروا كأنهم رهن الهوى وعلى التخدير قد فطروا
فـذا يعربد إن صلى وذاك إذا أثرى وذلك بالأحلام يختمر

وفى المقطع الخامس: يستعرض لنا الشاعر أن من يرتضي الحياة كما هي ويحياها بعفوية هم قليل، والكثير منهم يتحكم به الضجر لما يحمله فى نفسه من عدم الرضي وأتى بهذا المعنى فى أسلوب خبري، وكأنه مسلمة من المسلمات – ولذلك: حولوا نهر الحياة الواسع إلى أكواب من وهم وازداد تمسكهم بها، وتحكمت فيهم الرغبات والنزوات وصاروا تحت تأثير هذا الوهم الذي يشربونه ويجدون فيه متعة. وأنهم إن شربوا هذا الوهم ازدادوا سعادة وكأنهم رهن هوي النفس، وكأن هذه فطرتهم التى فطروا عليها

ثم يعدد لنا نماذجاً بشرية ذات طبائع مختلفة التكوين، فهي تفعل الشيء ونقيضه تجمع بين الصلاة والعربدة.... فذاك إذا أثري وتملك تغير، وهذا يشرب الكأس الوهمية التى تمتلئ أحلاماً – وعندهم هذه الأرض خمارة والدهر صاحبها، والأوائل فقط رضوا وانتشوا بحق، وقل إذا رأيت من به صحو فإن رأيته...فسله هل القمر يستظل بالغيوم ؟ بالطبع لا. لأنه إلى زوال سوف يمطر وينتهي ويرحل فالدنيا ليست نهاية الرحلة ولا ختام المطاف والسعي.

فالأرض خمارة والدهر صاحبها ... وليس يرضي بها غير الأولي سكروا
فإن رأيت أخا صحو فقل عجباً ... هل استظل بغيم ممطر قمر ؟
ليس فـى الغابات سكر ... من خيال أو مدام
فالسواقـــي ليس فيها ... غير أكسير الغمام
إنما التخدير ثـــدى ... وحليب للأنام
فـإذا شاخـوا وماتـوا ... بلغوا سن الفطام
أعطني النـاي وغـن ... فالغنا خير الشراب
وأنيـن النـاى يبقـى ... بعد أن تفني الهضاب

وفـى المقطـع الـسادس:تـسيطر علـى الـشاعر فكـرة الفـن هـو الحقيقـة المـستديمة، فالتعلق بأى شىء أخر خدعة، لكـن لا يكتـشفها البعض إلا وهـو مفارق للحيـاة بعـد شيخوخته إذ رضعوا تلك الفكرة وعليها شبوا، والتكثيف عالى النبرة، فإذا كان التكثيف تنوء به أبيات القصيدة كلها إلا أنه بدى هنا بشكل سافر " والتكثيف فى البناء هـو أن تكـشف حركـة إيقاعـه البنـائى، خـلال جملـة علاقاتـه الـصياغية عـن تجمع متصاعد،وحثيث لأجزاء المعنى والإلحاح عليه، للوصول إلى ختام حاسم يجلى إيجابية واضحة لتنقلات هذا المعنى أو الموقف. وأركان التنويع فى القافية والوزن والأشطار والأبيات عون فى إبداء هذا التكثيف و تلاحم البناء(١)
ثم يعـود إلى الحريـة معجباً بها لأنـه لا يـري فيها سـكراً أو سـكارى ولا مطـامع ولا أكواب وهم، ويعانق هذه الطبيعة الخلابة الصافية التى ليس فيها خـداع ولا نفـاق، ويطل علينا النهج الرومانسى... إذ تطلع الرومانسيون إلى الطبيعة، باعتبار أن فيها الخلاص، وأن الفرار إلى الأماكن البعيدة عن المدنية الخانقة هو الحل، ويقصون

(١) بناء القصيدة فى دواوين شعر المهجر الجنوبى رسالة دكتوراة هيا محمد عبد العزيز الدرهم د سهير القلماوى د جابر عصفور ١٩٩٥ صـ٤٣٨

الدوافع والطرق لذلك " وهم يقصون ذلك من خلال تجارب ذاتية تعرضوا لها هم بذواتهم، ونراهم يصبغون تجربتهم الذاتية بصبغة الشاكى الأسيان المتوقد المشاعر "الذى يتجه بأسلوبه إلى القلب أولاً وقبل كل شىء وليس إلى العقل بطبيعة الحال "(١) بينما الأوهام التى يتعلقون بها وكأنهم مخدرون كأطفال، والوهم ثدى لهم أي أن هذه الدنيا بأوهامها التى تسيطر عليهم بعدتهم عن الحكمة وفهم الحياة فهماً حقيقياً.

فإذا تقدموا فى السن وشاخوا يتنصلون ويبتعدون عن هذه الأوهام والمطامع... والخيال هنا خلاق مثمر يظهر تطلع النفس الإنسانية وعنف مطامعها وسيطرة الوهم، وتنتهي بقناعة الإنسان وزهده فى تقدم سنه ويعود إلى مهربه الجميل... آلا وهو الفن والغناء فهو خير الشراب، ورجع هذا الفن الرفيع سيبقي بعد زوال الهضاب العالية القوية، والمادة الصلبة والحسية التى يعلق بها إنبهاراً البعض، إذ أن الروحانيات أبقي منه وأكثر بقاءً وصلابة.ونجد ارتباط الوحدات الدلالية – الغناء – الغناء بشكل متجدد ممتد وتكرار مقطع: اعطنى الناى وغنى....مشع الدلالة وليس معناه قصر الدلالة على المنولوج الداخلى. فهناك مبدأ " نسبية الدلالة يندر أن تكون هناك كلمات تتفق فى ظلال معانيها اتفاقاً كاملاً أو من الممكن أن تتقارب الدلالات لا أكثر ولا أقل " [٢]

والدين فى الناس حقل ليس يزرعه غير الأولي لهم فى زرعه وطر
من أمل بنعيم الخلد مبتثر يخاف ومن جهول النار تستعر
فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا رباً ولولا الثواب المرتجي كفروا
كأنما الدين ضرب من متاجرهم إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

(١) فى الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج صـ٢٤
(٢) شعر إيليا أبو ماضى دراسة دلالية رسالة دكتوراة نصر الدين صالح سيد إشراف محمود فهمى حجازى ، د عبد الحكيم راضى ١٩٩٠

وفى المقطع السابع: يقول إن الدين حقل لم ينجح فى زراعته غير أولئك الذين لم تأخذ الدنيا منهم أنفسهم فمنهم من يملك المعرفة والتأمل، ويأمل بنعيم الخلد ويستبشر بهذا، ومنهم من هو جاهل،لكنه يخاف النار والعقاب، فالناس لولا العقاب فى الآخرة ما عبدوا الله،

فهي عبادة خوف ويطمعون فى الثواب ولولاه كفروا، وكأن هذا الدين تجارة لهم فيها الربح والخسارة. وهذا ما يرفضه شاعرنا جبران إنه يوضح قوة النزعة الدينية وسيطرتها على الشاعر إذ ينتقد هاتين الشريحتين

والحق أن وجه الطائفية البغيض قد طالعه شعراء المهجر وسيطر على البعض منهم، والبعض الآخر وجدوا السماحة الجميلة فى بلاد المهجر وحرية المعتقد، وقارنوا بينها وبين التعصب الأعمي فى المشرق العربي عامه ولبنان خاصة. وخاصة أن ذلك القبح كان من الدوافع التى قذفتهم خارج البلاد ورمت بهم إلى الغربة. فهو يشيد أن ذلك القمء لا يوجد فى الغاب

ليس فـى الغابـات دين	**لا ولا الكفر القبيح**
فـإذا البلبـل غني	**لم يقل هذا الصحيح**
إن ديـن الناس يأتـــي	**مثل ظل ويروح**
لم يقم فى الأرض ديـن	**بعد طه والمسيح**
أعطني الناي وغـــن	**فالغنا خير الصلاة**
وأنين النـــاى يبقى	**بعد أن تفني الحياة**

المقطع الثامن: يعود إلى الحرية فى الطبيعة واللاقيود

فها هي الغابات بطبيعتها لا الدين فيها ولا الكفر القبيح، أي أنها ليس بها هذه التجارة بالدين ولا فيها الكفر القبيح،

وقد وصف الكفر بالقبح لأن هناك فهماً دينياً آخر أعمق من هذا الفهم الذي أفسد الحياة الملأى بالبشر أصحاب النفوس الملأى بالهوى والرغبات. أولئك الخاضعون لنزواتهم ونزعاتهم،

فإذا البلبل غني..... لم يتشدق بصحة غنائه ويدعي أنها الصواب.

إن دين الناس مثل ظل ليس ثابتاً بل يروح ويذهب عنهم وهذا ما يرفضه شاعرنا جبران فليس هناك دين حقيقي بقي بعد الإسلام والمسيحية، وبعد أن وضح تلك الحقيقة قال:

لا أمل، لا وآب...وفر إلى مهربه الجميل.... وما فيه من معان خالدة باقية بعد أن تفني هذه الحياة. ونص على الديانتين المسيحية والاسلام.

استجمعت " المواكب" شيات متنوعة من النظرة الثابته لتحليل الكون، والوقوف على مزاياه وعيوبه، أمنه ومخاطره، وجمعت بين متناقضات محمودة، ففى الوقت الذى يذوب فيه الشاعر فى الكون وتتشتت نفسه شظايا ملتحمة بعناصره وجزئياته، نجده يأووب إلى داخل ذاته لا للتقوقع فيها، وإنما استبطانها وفهم ما بها، وما يتنازعها وما تهرب منه وما تستكين له.، ما تهرب منه وما يتطلع إليه فى تجربة إنسانية يتحد فيها مع الموجود، والكون إذ نفذ فيه برحابته، ومزق القيود بضيقها وأراد معانقة الوجود،

إذ إنكفأت ذاته على حب شديد له وصدق عليه قول الشاعر الكروى متمنياً ضم الكون هياماً بحسنه يقول الشاعر القروى

من لنفس تود لو تغمر الكون هياماً بحـــسنه المعـــبود
منك إلى هذا الوجود بشيء أنا لا استطيع ضم الوجود (١)

(١) ديوان الشاعر القروى ص٥٤

سمات الأدب الرومانسي والمهجري وتحققها في المواكب

تحدث فى سمات المواكب الكثيرون وأفاضوا... باختصار تارة..وبإسهاب أخرى، وقد أشرت فى عجالة إلى بعض خصائص مدرسة الرومانسية التى تحققت فى مدرسة المهجر، وبدى أكثر ما بدى فى قصيدة "المواكب" لذا... رأيت أن ألأصوب أن أتحدث عن هذه السمات وتلك الخصال من خلال أبياتها،إذ رأيت أن ذلك يجمع بين الحسنيين ويفر من التكرار فبه تأكيد على خصال المدرستين ومدى تحقيق ذلك فى الأبيات.

يقول د النعمانى: " فى قصيدة المواكب نرى ميل جبران إلى المقطع ذى القوافى العشر، فالقصيدة تتألف من مائتى بيت وثلاثة أبيات، وتقوم على الحوار بين شخصين، أو صوتين، أحدهما صوت حكيم، يتحدث بأسلوب الحكم عن الثنائية فى الحياة والمجتمع. وقد جاءت الأبيات معبرة عن ذلك، موحدة القافية، وهى من بحر البسيط، ويبدو أنه كان فى خاطر جبران تكون أجزاءه التى تحمل كلام الحكيم فى شكل رباعيات، لكنه لم يستطع ذلك إلا فى أحد عشر موضعاً على حين جاء كلام الحكيم ثلاث مرات فى خمسة أبيات. أما الصوت الأخر فهو صوت الفتى الذى راح يرد على الحكيم، وتوزعت ردوده على سبعة عشر موضعاً وهى تبين أن مثل هذه الثنائية لا وجود لها فى الغاب، لإنه لا يسود فيه إلا التوافق والإنسجام." (١) وهذه المطولة عليها ظلال الأدب الغربى الممتلىء بهذا النهج.... إذ هناك شكل مستحدث فى الهيكل المنظم للقصيدة، فكل رد من ستة أبيات من مجزوء بحر الرمل، مع تغير القافية، الذى يرجع – بعامة – إلى نمطين. وجاء الرد فى موضع واحد فقط بقافية موحدة، وفى كل رد تأتى الأبيات الأربعة

(١) جبران بين التمرد ومصالحة النفس ص٥٢

الأولى من أبياته الستة بالقافية "أ" على حين يكون المزدوج الأخير بقافية مختلفة. ويعد هذا المزدوج بمثابة اللازمة أو القرار، حيث يؤكد الفتى أن صوت الناى يرمز إلى محو الثنائية التى يشير إليها الحكيم من قبل. ومن هنا يكون الشطر الأول من البيت الأول فى المزدوج:

أعطنى الناى وغنِّ

ويكون الشطر الأول من البيت الثانى

وأنين الناى أبقى

وفى الرد السابع، استخدم الشاب الشكل نفسه، على حين جمع رده الأخير فى عشر مزدوجات، وهناك توليد للمعانى بعضها من بعض، والصور قد تأتى كلية ثم تجزء، أو جزئية ثم تركب... بإبداع يشهد لجبران بتمكنه من اللغة. وتكرار ذلك المزدوج على اختلاف العجز وتغيره مقابلة مع اتفاق الصدر وثبوته أثرى القصيدة وصبغها بشيات مكثفة من التنوع، عُد كل مقطع خاتمة متممة للفكرة التى ساقها فى البداية ثم ذيلها بالمزدوج.

ففى البداية تكلم عن فكرة " المُخضع " و" العبيد" الخاضعين له. فجاء المزدوج بفكرة....أن الغناء راع للعقول وأن أنين الناى أفضل من المتناقضين.. المجيد – الذليل

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا يرعى العقول

وأنين الناى أبقى من مجيد وذليل

وفى الفقرة التالية تحدث عن أصالة البهجة الماحية للمحن، وزيف ودخول الحزن والغيوم

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا يمحو المحن

وأنين الناى يبقى بعد أن يفنى الزمن

وفى المقطع الثالث تحدث عن السكر – مدام – خيال – أكسير – الغمام – حليب– فجاء

المزدوج

أعطنى الناى وغنِّ فالغـــنا خير الشراب

وأنين الناى يبقى بعد أن تفنى الهضاب

المقطع الرابع: يتحدث عن الدين ويقر أن لا دين بعد طه والمسيح

والمزدوج

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا خير الصلاة

وأنين الناى يبقى بعد أن تفنى الحياة

والفكرة التالية: فكرة العدل فالثلج يذوب إذا طالعته الشمس

والمزدوج

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا عدل القلوب

وأنين الناى يبقى بعد أن تفنى الذنوب

وفى المقطع التالى يتحدث عن القوة والعزم فجاء

المزدوج

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا عزم الوجود

وأنين الناى يبقى بعد أن تفنى الشموس

ثم يتحدث عن الظرف وجمع المتناقضين، فجاءت خاتمة المقطع

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا خير العلوم

وأنين الناى يبقى بعد أن تُطفى النجوم

فالعلوم لا تثبت إنما هى متغيرة، ثم يتحدث الصوت الأول عن الحزن، وكيف إن الغابات بها قيود والطبيعة " زهر اللوز " تمنح غير مفرقة بين الحقير والكريم

أعطنى الناى وغن فالغنا مجد أثيل

وأنين الناى يبقى من زنيم وجليل

وهى تؤكد الفكرة السابقة، فالغناء قديم وصوت الناس أخلد من زنيم وجليل، واستعماله كلمة جليل غير موفقة لإنها وهى مشترك لفظى يصح أن تحمل على معنى عظيم... فيكون تضاد أو على معنى حقير...فيكون تكرار،ثم يتحدث عن المخاتلة أو المخادعة والغش، وكيف أن الندل دائماً لطيف ليوارى ندالته،ليخدع الأخرين.

أعطنى الناى وغن فالغنا لطف الوديع
وأنين الناى يبقى من ضعيف وضليع

فالضعيف والقادر فانيان والباقى هو الناى، ثم يتحدث عن الإنكسار الذى فى طيه انتصار

أعطنى الناى وغن وأنسى ظلم الأقوياء
إنما الزئبق كأس للندى لا للدمار

فنجد الصدر الثانى من المزدوج تغير لأول مرة، ثم ينفى الملل عن الغاب

أعطنى الناى وغن فالغنا نار ونور
وأنين الناى شوق لا يدانيه الفتور

فالإختلاف فى كلمة فى صدر المزدوج، ثم يتحدث الشاعر عن الثنائيات المتضادة نفس – جسد، الهوى – الندى (١) جاء المزدوج

أعطنى الناى وغن فالغنا جسم وروح
وأنين الناى أبقى من بوق وصبوح

ثم يتكلم عن الدخيل والأصيل فى الغاب،

أعطنى الناى وغن فالغنا جسم يسيل

(١) لا يوجد تضاد مباشر إنما ينتج البيت تضاد مركب ، فالعناصر الطبيعية كلها بعضها من بعض على أحوالها المختلفة .

وأنين الناى أبقى من مسوخ ونغول

يتكلم عن الموت والفناء...

أعطنى الناى وغن فالغنا سر الخلود

وأنين الناى يبقى بعد أن يفنى الوجود

ثم يزيل هذا المعنى بمزدوج أخر ينفى القول بلا عمل ويدعو للأخرة

اعطنى الناى وغن وأنسى ما قلت وقلتا

إنما النطق هباء فأفدنى ما فعلتا

ثم يتحدث عن تواصل الإنسان مع الكون، عرف ذلك أم لم يعرف

أعطنى الناى وغن وأنسى داء ودواء

إنما الناس سطور كتبت لكن بماء

للدلالة على فقد الأثر الطيب من الإنسان

..... ومن خلال المواكب تتضح سمات الشعر المهجرى من نحو التسامح الدينى.... فقد مقت الهجريون التعصب الدينى الذى شكل أحد معاول الهدم الضاغطة عليهم والدافعة للهجرة من البلاد لذا عُد " الممثل الحقيقى لهذا التحرر الدينى هو جبران الذى هاجم التعصب، وحمل على التقاليد الدينية الموروثة "(١) وهو القائل

والدين فى الناس حق ليس يزرعه غيرُ الأُلى لهم فى زرعه وطرُ

ليس هذا فى الشعر فقط بل فى النثر أيضاً

ومن أقوال جبران " أحبك ياأخى ساجداً فى جامعك، وراكعاً فى هيكلك ومصلياً فى كنيستك، فأنت وأنا أبناء دين واحد هو الروح(٢)

(١) التجديد فى شعر المهجر د محمد مصطفى هدارة صـ ١٢٣

(٢) المرجع السابق / نفسه صـ ١٢٤

فقد تمزق الوطن العربى نتيجة لثلة متعصبين فاسدة، عملت على نشر المعادة للأخر وقتله، ففر جبران من هذا الرق، ودعا الجميع إلى التسامح الدينى، وحرية العبادة فى النشر " أنا مسيحى ولى الفخر بذلك، ولكننى أهوى النبى العربى، وأحب مجد الإسلام، وأخشى زواله،إننى أسكن المسيح شطراً من حشاشتى، ومحمد الشطر الأخر "(١)

يقول د زكى مبارك : (٢) لكل أدب من الآداب القديمة خصائص وخصيصة الأدب السريانى هى الإسراف فى الكآبة، فجبران الحزين هو البقية من روح السريان القدماء... وعلة الحزن السريانى أو السورى لا تحتاج إلى توضيح، فأولئك أقوام كان تاريخهم كله عراك فى عراك ولم تكن بلادهم إلا محترباً، يتصاءل فيه الفقر والغنى، والعبودية والحرية،والخوف والأمان، بغض النظر عن إحتراب العواطف والشحون "

النزعة الإنسانية... إذ سبحت القصيدة فى أجواء شعورية انسانية، تنم عن عواطف مضطربة تقبع خلف هذه الأبيات المنظومة... واتسعت رقعة الحب فلم تعد محسورة فى شخصية بذاتها بل عانقت الوجود حتى استحال الحب " عندهم نوعاً من العبادة الصامتة والتقديس، لا تسفل به نزوة طارئة ولا ينتقص من شعور جامح، مطلق السراح.

إذ كان المهجريون أكثر احساساً وتماساً مع الوشائج الإنسانية المطلقة،لا تحد بوطنية ولا تطلقها عصبية بل منطلقة، أرواح فى سماء الإنسانية متخلصة من أدران المادية. والأدب عندهم لحناً فريداً "جوقته " الكون كله بشره وجماده وطيوره وحيوانه ونباته" (٣)

---

(١) التجديد فى شعر المهجر د محمد مصطفى هدارة صـ ١٢٦ – الرسالة يناير ١٩٤٢
(٢) المرجع السابق صـ٨٨
(٣) المرجع السابق صـ ٩٥

فقد استوعب جبران الإنسانية فى ذاته فنفثها فى قصيدته فرغم خلو المواكب من الحديث عن المرأة – وكانت قبله قبلة القصاد من الشعراء – إلا أن القصيدة حازت على اعجاب الجميع،

غلبة الحنين.... كان جبران كغيره من شعراء المهجر يكتب حنيناً بيناً" زاخرة الفؤاد بحب الوطن، مفعمة النفس بذكراه والتغنى بأمجاده(١) والحنين إلى الأوطان غرض قديم منذ الشعر الجاهلى، والشعراء يفيضون فيه، فالشاعر القديم " كان يهتاج حنيناً إلى مغناه القديم فى قلب الجزيرة فيجرى لسانه بالشعر معبراً عن فيض وجدانه " إلا أن هذا المنحى تبلور بشكل مبهر عند شعراء المهجر فقد اجتمع الإحساس العميق بالوطنية وفيض الشعور بالقومية " فانبعثت مزاهر شعراء المهجر تهزج بالأناشيد الحماسية، والقصائد التى تتغنى بحب الوطن وتهيب به أن ينهض من كبوته، وتنفض عنه غبار الجهل والجمود(٢)

هل اتخذت الغاب مثلى منزلا دون القصور
فتتبعت السواقى وتسلقت الصخور

نزعة الألم.. فى المواكب ثمة اختلاط للأمل بالألم، والألم يغلب بشكل عام على شعر المهجر، حزناً عند تذكر ماضيهم فى بلادهم حتى قال فوزى المعلوف

ألم كلها الحياة فلا تضحك ثغراً إلا لتبكى عيوناً

فإن المواكب قد خالفت هذه الركيزة إذ يشع فيها الأمل ويطالب أحدهما الأخر.... بالسهو عن الألم وتناسيه

ليس فى الغاب عقيم لا ولا فيها الدخيل
إن فى التمر نواة حفظت سر النخيل

(١) التجديد فى شعر المهجر صـ٩٥
(٢) المرجع السابق صـ٩٦

الإستخبار النفسى..... أو استبطان الذات " يبحث جبران عن ذات ويستبطن أحاسيسه ويخرجها زفرات وإن كانت فردية، إلا أنها إنسانية جامعة، وما الشاعر إلا فرد تساقط إليه خصال الجنس البشرى وأتى ملكة ألأداء والتعبير عنها "

أتحسب أنك جرم صغير وفيك أنطوى العالم الأكبر

وتلك النظرة عبارة عن اختلاف الزاوية، إذ يوجه الشاعر مرائيه ونظرته إلى داخل نفسه لا إلى خارجها، كما كان يفعل أصحاب المذهب السابق – الكلاسيكيون – وهى رؤية تتوافق مع الدراسات الحديثة فى استبطان الذات والإنشغال بالأنا.

الإيقاع فى النص

انطلاقا من شكله الفنى ,إذ يميزه المزج بين وزنين عروضيين ؛ مع تنويع في الروي واعتماد المقاطع، مع محافظة على نظام الشطرين من صدر وعجز، واعتماد على التصريع في المطلع، في محاولة لتصنيف القصيدة على أساس المقارنة مع النموذج المثال العمودي البناء قراءة النص الأفقية

لفهم المعاني التي تطرق إليها الشاعر، الأفكار متنامية داخل القصيدة، فالفكرة تستوفى ثم تنسل إلى فكرة أخرى، وهذا الانتقال يتم بيسر وسهولة، فحسن التخلص مسيطر على المقاطع فيتحدث عن ظواهر طبيعية (الغاب – الشتاء – الأرض– الزهر – الغناء – الحقل – الصفصاف – الشمس – الثلج) ولأن القصيدة يسيطر عليها الحوار فهناك تنوع موسيقى.. مما نأى بها عن الرتابة والاعتياد، ويعد منطلقاً فنياً حاوياً حسن الوقع والدلالة المشعة من جيد التصوير... ونحس بشكل متوارى أحياناً سافراً مرة أخرى عمق الوشائج الوطنية، إذ تقطر الصورة فيض الحنين إلى الوطن البعيد، وتثبت اقتدار جبران إذ حوت الاتجاهين، فإلى جانب سيطرة النزعة الرومانتيكية بمقتضياتها من مسالمة ونعومة ورقة، هناك رغبة حادة عنيفة فى التعبير ؛ داعية إلى نبذ الواقع المرير ورفضه وعدم الإستسلام له.كذلك كان هناك حضور لموضوعات إنسانية (الناس – الخير – الشر – الدهر – العدل – الموت – المجد – الجسم – الروح)

وهنا ظاهرة يدل عليها وهو أنه يقع على الألفاظ الموحية ذات الدلالة الواضحة بالإضافة إلى تنويعه بين أساليبه التعبيرية فجمع بين الخبر والإنشاء، كذلك ملاحظة موازنة الشاعر بين الأسلوبين كأنهما يعكسان صورتين من صوره الفنية بين الوصف الحسى والتخيل المعنوي، والمستوى البلاغي التشبيه – المجاز – الاستعارة – الطباق – التكرار... بالإضافة لوجود الحوار الداخلي الذي يعكس

التأمل في الحياة والوجود من خلال المقارنة بين عالم الناس في الواقع و عالم الطبيعة – التناقض والتصادم – الصراع.

هناك إحساس عالى بالذات يتخلل ثنايا النص فهو...يحكي – يصف – يصور – ينفي – يرغب مفصحاً عن ذاته وإحساسه وشعوره ذلك أكسب القصيدة ثراءاً كبيراً، وأوضح مكانة جبران الأدبية ومساهمته الملموسة فى التطور بالشعر العربي.

البناء الهيكلى للنص

اعتمد البناء الهيكلى للنص على الإطار السردى كإطار عام وقد امتازت به عن الشعر العمودى القديم ، وحوى النص أبنية متعددة.. بناء سردى...إذ يأووب الشاعر بذاكرته إلى الخلف.. بناء تقريرى...." وما تقدمه من معطيات الإلزام والتحديد والإكتفاء وطغيانها فى صياغات البناء سمة لافتة " (١) وبناء وصفى... إذ أصبحت القصيدة لوحات تلتقط مناظر انبهر بها الواصف وعجزت صياغتها عن تقديم لمحات للتفاعل بين المشهد وواصفه "(٢)

البناء الخطابى... هنا منساب خفيض الصوت ؛ إذ يسرى نصحه ليقر فى وعى المتلقين.... إذ زاوج جبران بين وزنين عروضيين هما البسيط و مجزوء الرمل ، كما نوع في الروي بين عدة أحرف " الراء – العين – اللام – الباء " ، بالرغم من محافظته على التصريع " جبروا – قبروا " في المطلع ، واعتماده نظام الشطرين صدراً وعجزاً ، وبذلك يكون جبران قد خالف وغاير في الشكل التقليدي للنموذج المثال ؛ دون الإنسلاخ عنه ، مما يعتبر نزوعا نحو التجديد والتطوير من الداخل ، انسجاما مع الشعور بالحاجة إلى الحرية الواعية في الإبداع الشعري. وهو هنا يتوافق كليةً مع نظم القصيدة المهجرية يقول: د شوقى ضيف عن المواكب " تعد ألأصل الذى يصدر عنه الشعر فى المهجر الأمريكى جميعه، وفيها يثور على المدينة وأوضاع الحياة الإنسانية وما يرتبط بها من رق وحرية من علم وجهل،... ثم يقول... وهذه الأوتار التى شدها جبران إلى قيثارته عزفت عليها أنامل المهاجرين إلى أميركا فى الشمال والجنوب مع ما يمتاز به كل منهم فى

(١) بناء القصيدة فى دواوين شعر المهجر صـ ٤٣٦
(٢) المرجع السابق صـ ٤٣٦

مزاجه وطبيعته " (١)وقد حوت المواكب الأبعاد الثلاثة البعد الزمنى – البعد المكانى – البعد الصوتى

تحدث كثير من النقاد عن "المواكب" كلُ تنبع رؤيته التى تحدد نظرته ولا شك أن اختلاف الرؤى ثراء واتساع كما أن وحداويتها فقر وتضييق وقد رأى د كاظم حطيط فى كتابه " أعلام ورواد فى الأدب العربى (٢) أن المواكب حوار شعرى بين شيخ وشاب، ألأول يأتى من المدينة، ويتحدث عن الواقع والممارسة، والآخر يسترسل منشداً خواطره عن العدل والحرية والحب والظلم والفرح وسوى ذلك ؛ مما يشغل عقول الناس وتطلعاتهم المختلفة.

بالنسبة لانشغالات الشاعر في المقطعين، يمكن أن يجد القارئ نفسه إزاء تعدد الأصوات الفاعلة في تنامي المعاني التي قصد الشاعر جبران إبلاغها للمتلقي ، ففي المقطع الأول يحيلنا على طبيعة القيم في الواقع، وكيف يصدر الناس فيها عن تناقضات ومفارقات ، مثل الخير الذي لا يأتونه إلا على سبيل الصنعة تحت الإجبار، في مقابل الشر الذي يأتونه على الدوام فهو جبلة فيهم لا يكلفهم رهقاً ، فيستمر أثره حياً حتى ولو قبر أصحابه ، ويبدو جليا أن تتبع الشاعر لأحوال الناس في ذلك الواقع ، إنما ينطلق من نقد صريح لمخالفتهم ما يجب أن يكون عليه الحال ، ماداموا قد فقدوا إرادة الاختيار والقدرة على التمييز بين حقيقة الخير والشر ، وصاروا كآلات تحركها أصابع الدهر، أو كالقطيع المنقاد خوفا من الاندثار.

ويحيل المقطع الثاني ، على قراءة الشاعر لحركة الوجود في الغابات، حيث لا راع ولا قطيع ، ولا تدافع بين الفصول فالشتاء يمشي ولكن لا يجاريه الربيع، كما يحيل على موقف الشاعر الإنتقادى من ذلك التناقض ، باعتباره واقعاً أسهم الناس أنفسهم في خلقه ، حين قبلوا أن يكونوا عبيداً للذي يأبى الخضوع

(١) فصول فى الشعر ونقده ط٣ دار المعارف صـ٩٢
(٢) دار الكتب الحديثة صـ٣٦٥ ج٢.

أما اللازمة الأخيرة من بيتين ، فإنها ستنفصل عن الحالة الذهنية الواعية بما يجري في الواقع والطبيعة، لتعلن عن الدعوة إلى الغناء خارج ذلك النسق المرفوض من طرف الشاعر،

رؤيا الشاعر هنا إيجابية إلى حد ما فهو لم يخضع لما خضع له الناس وكان عنصراً فى تلك المنظومة بل وقف متفرجاً محاولاً إيجاد بديل يخرج به من تلك الفرضية التى يأباها لكن رفضه قد يوسم بالسلبية حيث إنه ركن إلى الغناء وإلى استحداث حالة نفسية ومزاجية تجعله محتملاً لذلك الوضع الذي لا يرتضيه. لا رفضاً صريحاً، وبذل الجهد للتخلص منه وتغييره.

اعطني الناي وغن فالغنا يرعى العقول..

يبين جبران أهمية الناى... فهو متنفس يجلى عن العقول صداها ويمدها بما ينعشها ويجعلها تقبل على الحياة حيث إن أحوال الناس تتبدل وتتغير بين مجد وخمول، ذل وعز،... إلى أن أنين الناى...باقى ثابت ينساب فى النفس فيشيع فيها السرور والأريحية.

ونجد الكلمات هنا بسيطة متداولة، لكنها حملت طاقات شعورية خلاقة تخلع على المتلقى نفس الحالة المزاجية والشعورية التى تسيطر على الشاعر " فاللغة طاقة ونشاط روحي خلاق، وهي بديهة وتعبير للروح، كما أنها ليست عضواً مستقلاً أو عضواً طبيعياً خاضعاً لقوانين ثابتة، ولا يفرد جوهرها إلزاماً على الفرد... " (١)

وسوف يسير جبران على نفس النهج الذي رسمه لبناء قصيدته المطولة على امتداد أكثر من مائتي بيت ؛ إذ اختار التنامي الحواري بين تلك الأصوات ، تتجاذبها ثنائية الواقع والطبيعة على التقابل ، من خلال حضور ذاتي مشدود إلى القيم التي تنفتح على الكوني الإنساني.

(١) فصول مجلة النقد الأدبي ج ١ ع – يناير ١٩٨١ صـ ٤ .

فجبران يتعاطف مع الإنسانية متخطياً القومية والعروبة إلى التفاعل مع الجنس البشرى تعاطفاً " هذا التعاطف الإنسانى لم يزد على أن يكون إعلاناً عن مشاعر وأحاسيس لا تنشد إلى إطار فكرى محدد يرتبط بالواقع على حد قول د أنس (١)

ربما يتأكد ذلك (من خلال متابعة المقطع اللاحق ، حيث يتمثل الواقع في صورة محزنة وساخرة ، بسبب نوعية العدل الزائف الذي يسود فيه ، في مقابل ما تعرفه الطبيعة من غياب في الأصل للعدل ،لعدم حاجتها إليه بين كائناتها ، مادامت لا تعرف تنافساً يمكن أن يؤدي إلى ظلم قد يستوجب العقاب، وينتهي جبران إلى التعليق على الواقع الاجتماعي من بوابة طبيعة العدل فيه ، لا يعدو أن يكون ثلجا ، سرعان ما تكشف الشمس زيفه فتذيبه، لذلك يعود إلى الاختيار والمطالبة بإعطائه الناي ،

لأن الغناء عدل القلوب فقد اكتفى بالعدل الباطني دون محاولة ظهوره أو تعميمه وجعله قانوناً متحكماً) (٢).

لا يسع القارئ إلا أن يشعر بمغايرة الشاعر لمن سبقوه على مستوى المعاني المطروقة ، بحكم تجاوزها لما هو ذاتي وشخصي ، إلى ما هو إنساني في بعده القيمي ، ضمن الاتجاه الرومانسي الذي شكل مرجعيته الفنية ، من خلال التعلق باستحضار الطبيعة بديلا عن الواقع ، لما تمثله من براءة وبساطة وحرية رضى عنها الشاعر كبديل للواقع.

(١) التجديد فى شعر المهجر ص ٢٧٥

(٢) مجلة الموقف الأدبي الشهرية التابعة لاتحاد الكتاب العرب عدد ٤٢٠ – نيسان ٢٠٠٦ – إنترنت

يتضح ذلك من خلال المعجم والأساليب والصور التي وظفها الشاعر للتعبير عن موقفه ورؤيته للعالم الاجتماعي من جهة والعالم الطبيعي من جهة أخرى، فالعالم الطبيعي يجد فيه الشاعر ملاذه ووفاءً لاحتياجاته،

أما العالم الاجتماعي فهو يحوى الكثير مما يرفضه ويأباه.فالصورة تتحدد بدقة باللفظ والأسلوب والمعنى والإحساس والشعور الكامل بالحياة،وهى فى الشعر تعتمد على الأسلوب الذى يكنىء ويومىء،وترسم بمهارة عن طريق مقاربة المجهول بالمعروف أو الإنتقال من عالم النفس إلى عالم الطبيعة، أوإعادة تشكيله من جديد عن طريق خلق العلاقات الجديدة فى اللغة التى تنتج له صور المجاز من الكتابة والتشبيه والإستعارة والرمز " (١)

---

(١) الصورة الفنية فى شعر لبيد رسالة ماجستير صلاح مصيلحى على عبد الله إشراف د النعمان عبد المتعال القاضى كلية الآداب جامعة القاهرة المقدمة صـ د

فكـرة المواكـب

النظرة التى ينظر بها الشاعر إلى الحياة ليست نظرة مجردة بل هي نظرة مقرونة بفكرة عقلية نتجت عن مراقبته للناس وأحوالهم فقد عرف أن النفس الإنسانية تجمع بين الأضداد فى داخلها، ويعتمل فيها صراع أزلي بين الخير والشر، ومالهما من تأثير سلبي أو إيجابي على الإنسان وسلوكه وبالتالي على منطقه فى النظر إلى الأشياء الإنسانية، وما تحمله من خير وشر ومن أفكار ومعاني، وبين الخير والشر والجسد والروح أنتج الإنسان فناً وفلسفة، وها هو جبران خليل جبران شاعر المهجر ى الكبير والذي ذاع صيته وعرفه الكثير والكثير من أبناء الوطن العربي وخارجه،

وظل إلى الأن محط أنظار الأدباء والمثقفين ودارسي الأدب لما يحمله شعره من تأمل فلسفي وجمالي للكون، والإنسان وما يتمتع به من قدرة خلاقة على التأثير السمعي والنفسي على القارئ لأشعاره،

فجبران شاعر موهوب بدرجة كبيرة وهو النبع الذي فاض منه النغم، وقد دعا إلى التحرر من اللغة التقليدية فى الشعر، وقبس من الرومانسية الغربية وما يجري فيها من ألم وتأملات فى الطبيعة والوجود،

وقصيدة المواكب تعد الأصل الذي يصدر عنه الشعر في المهجر الأمريكي جميعه وفيها يثور على المدينة وأوضاع الحياة الإنسانية وما يرتبط بها من رق وحرية وعلم وجهل وحق وباطل وقوة وضعف وسعادة وشقاء، داعياً الناس أن يفروا من جحيم تلك الحياة إلى الغاب والطبيعة حيث الفطرة والبساطة ويتطلع إلى وحدة الوجود وما يطوى فيها من ألفة. ويرمز إليها بالغناء على الناى جاعلاً هذا الغناء خاتمة لكل نشيد من أناشيد قصيدته، ودائماً تفيض أشعاره بالحيرة والشمس والألم والتأمل فى الطبيعة فى لوعة وأنين

– على حد قول د / شوقى ضيف (١) يقدم لنا فى هذه القصيدة (المواكب) الجمال الفلسفي – والعاطفة والفكر – فى نتاج فني رائع التأثير لمشاهداته وتأملاته الكونية والحلم بإنسان فاضل لا يحمل الخطايا ولا يقدمها، يشع نوراً وحباً وفضيلة – وهذا ليس غريباً على جبران فهو متمرس على هذا المجال الإبداعي فله قصيدة (البلاد المحجوبة) هذه البلاد الفاضلة ذات الإنسان الراقي الخيِّر.

المثالية فى فكر جبران الشاعر: يقدم لنا النص فكراً فلسفياً ناتجاً من تأملات عميقة للكون من حوله، يرصد حركة الحياة وإيقاعها وزيفها واهتمام الناس به، وخضوعهم لتأثيرها مطلقين لأنفسهم العنان حتى صاروا كالأطفال الرضع من ثدى الأوهام التى تخدرهم وتخدعهم ويجدون فيها حليباً لهم، ولا يتركون الرضاع إلا فى الشيبه إذا شابوا

أو ماتوا ولولا الثواب والعقاب ما عبدوا وكأن الأمر تجارة لهم، وهو هنا متأثر بالمناخ الثقافي السائد فى أمريكا التى يقضي فيها غربته ولم يبق فى الأرض غير الأديان السماوية. ونلاحظ فى النص " الغلبة الفكرية والنزعة الفلسفية على مجرياته وأبياته"(٢)

ويرى ملاذه فى الفن الذي يبقي أثره وإن زالت الهضاب المرتفعة، ونجده يعود إلى ملاذه فى نهاية كل مقطوعة يرفض فيها ما يراه من طبائع النفس والمجتمع الذي يحيا فيه شرقياً أو غربياً...

ويحلم بعالم أفضل وإنسان أرقي ونفس بشرية أنقي فى كل شيء فى الإحساس والمشاعر والاعتقاد الديني.

---

(١) فصول فى الشعر ونقده د / شوقى ضيف صـ ٢٩٢ دار المعارف ط ٣

(٢) الشعر المعاصر احمد مرتضى عبده الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥ صـ ٤٧

اللغة في شعر جبران " المواكب "

الملفت للانتباه على مستوى الاستعمال المعجمي ، ميل جبران إلى اعتماد اللغة البسيطة من صميم المُتَدَاوْل ، دون جنوح إلى الإغراب أو التعقيد ، انسجاما مع الدعوة التي عبر عنها في مواجهة دعاة السلفية الشعرية ، حين واجههم قائلا: لكم لغتكم ولي لغتي " (١) متجها إلى التعبير بمفردات متصلة بنشاطه الذهني وتفكيره في اللحظة المعيشة ، دونما حاجة إلى البحث في القاموس القديم ،عما يكون مرادفات للغة التي يسعى إلى التمثيل من خلالها عن حالته النفسية والذهنية ، وقد اعتمد طريقاً تعبيرياً مميزاً حتى اشتهر على الألسن بالطريقة الجبرانية،

إذ تتداخل التعبيرات وطرق الأداء بشكل متنوع برأ من الغموض، خالى من التعقيد يدل على اقتداره فى اصطياد الأساليب المختلفة، وإيجاد علاقة بينها وقد حضرت بقوة مكونات الحقل الدلالي الطبيعي ، الغاب – الشتاء - الأرض– الزهر – الغناء – الحقل – الصفصاف – الشمس – الثلج – في ارتباط مع عناصر من الواقع ، " الناس – الخير – الشر – الدهر – العدل – الموت – المجد – الجسم – الروح

مما يدل على البعد الرومانسي من جهة ، والبعد التأملي الإنساني من جهة أخرى , ولا يبدو جبران في ذلك مباليا بما يقع فيه من التكرار اللفظي ،فيما يمكن اعتباره حجراً أساسياً في النص ، مثل الناس والغابات والغناء ، إذ تحيل على التوزيع المقطعي الذي قصده ، الواقع... والطبيعة... والذات... وهى الأعمدة الثلاثة التى شيد جبران مواكبه عليها.

(١) الأدب العربي فى المهجر د / حسن جاد صـ ٤٠٩ ط ١ القاهرة ١٩٦٩

(ويلاحظ القارئ أيضا ، اهتمام جبران بالجملة التعبيرية التواصلية ، رغم اشتغاله بالشعر كفن تعبيري باللغة ، بحيث يهيمن الأسلوب القريب من النثر، وهذا يرجع لغزارة إنتاجه نثراً، لذا غلبت عليه الصيغ الخبرية، كأنه يتوخى الإبلاغ والإقناع أساسا ، ولا تأتي الصيغ الإنشائية القائمة على عدم احتمال التصديق فيها أو التكذيب ، لأن المطلوب فيها غير حاصل وقت الطلب ، مثل الأمر والنفي ، إلا لتأكيد المعنى المخبر عنه على سبيل التقرير، فيما حقه أن يكون قابلاً لذلك التصديق أو التكذيب)(١)

فنجد أن ما قدمه شاعرنا فى قصيدته (المواكب) من لغة وأساليب وتراكيب لغوية – تحمل صوراً أو لا تحمل إلا معناها– جاءت متسمة بالوضوح والبساطة مع العمق ودلالة أرحب، وكأنه يحقق قول نيتشه الفيلسوف الألماني الذي رأي أن " رسالة الكاتب هي الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذي يبعث فيه " وكان الكاتب مثل النبي كلاهما صاحب رسالة يعمل على توصيلها وكما قال "هيكل " معرفاً الأدب بأنه: " من جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما فى الحياة والوجود حق وجمال بواسطة الكلام والأدب هو الذي يؤدي هذه الرسالة " (٢)

فالرومانسيون يعبرون عن إحساسهم وشعورهم فهم أصحاب رسالة دعت إلى " حرية الفن ولاذت بالشعر المجنح بأشجان العاطفة الممعن فى الأحلام والخيالات والرؤى وحب الطبيعة، والمتسم بالطابع الفني والأصالة المبتدعه والشخصية الملهمة،والروح الغنائي الأخاذ والإنطواء على النفس " (٣).

(١) مقال من الموسوعة العالمية للأدب – إنترنت .
(٢) ثورة الأدب محمد حسين هيكل صـ ٢٦ دار المعارف القاهرة ط ٢ سنه ١٩٨٦ .
(٣) مداس النقد الأدبي الحديث د / محمد عبد المنعم خفاجى صـ ١٥٥ الدار المصرية اللبنانية .

وقد اتسمت بحرية الأسلوب وسلاسته.... لذا نجد جبران – من زعمائها – يميل إلى سلاسة الأساليب، فقد خلت القصيدة من التعقيد الفظي والمعنوي، مما ساعد على وصول الفكرة وجزئياتها إلى المتلقى، فعرف القارئ رؤيته واستمتع بأدائه اللغوى والفني الرائع ؛ الذي يجمع بين السهولة والعذوبة البساطة والعمق، وقد بعدت لغته عن الذاتية أو الشخصية فلم يقدم لنا تجربة ذاتية إنما قدم تجربة عامة تحمل الفلسفة وإذكاء الوجدان وإعمال التأمل الذي يجمع فى مشاهداته بين المطالب الجسدية والنفس وهواه والروح والإحساس بالحرية الحقيقية،

وهذه النظرة الفنية كانت منتشرة فى الغرب وأمريكا فى هذا الوقت، من ثورة فكرية ومعتقدية وفنية أيضاً، والدعوة إلى حياة أكثر صفاءً وهدوءً، فقد خلفت الحروب لهم الآلام والصراعات والأحقاد، ونادي أصحاب هذا الاتجاه التحرري التخلص من قيود الماضي والدعوة إلى الرومانسية، والفن هو الخلاص من هذه القسوة التى خلفتها لهم الحروب، والدعوة إلى التعانق مع الطبيعة واللجوء إليها كمهرب جميل لا قيد فيه، وكانت الحركة الأدبية مواكبة للحركة السياسية والاقتصادية. فالوطن العربي سقط معظمه مستعمراً من مستعمرات شتى وحال العباد فيه تكاد تكون متماثلة فى الضيق والتبرم وشظف العيش.

واللغة شديدة الخصوصية عند جبران، وله قاموسه الخاص وإذا كان الرصافى قد قال:

أجود الشعر ما يكسوه قائله بوشى ذا العصر لا الخالى من العصر(١)

فإن جبران يقول: (لكم لغتكم، ولي لغتي: لكم منها القواميس، والمعجمات، والمطولات، ولي منها ما غربلته الأذن، وحفظته الذاكرة من كلام مأنوس، وتتداوله ألسنة الناس فى أفراحهم وأحزانهم....

(١) ديوان معروف الرصافي جـ ١ ص د مطبعة الاستقامة القاهرة .

لكم من لغتكم البديع، والبيان، والمنطق، ولي فى لغتي نظرة فى عين المغلوب، ودمعة فى جفن المشتاق وابتسامة على ثغر المؤمن لكم منها القلائد الفضية، ولى منها قطر الندي ورجع الصدى، وتلاعب النسيم بأوراق الحور والصفصاف، لكم منها الترصيع والتنميق وكل ما وراء هذه البلهوانيات من التلفيق: (١).

هذه هي لغة الشعر عند جبران بمفهومها الحضاري الذي يحقق من خلالها التواصل والتناغم مع الآخر، وإقامة علاقة جمالية ومعرفية مع ثقافته وحضارته ومع إحساسه ووجدانه، فلم يعتمد على ما يعتمد عليه الشعراء فى الوطن العربي من زخرف القول وقوة فصاحته.

فاللغة لديه أداة للتواصل والتخاطب وتهذيب الوجدان، وكأنه اطلع الغيب، وعرف أنه سيأتي زمن ينادى فيه بالبساطة والحديث بلغة العصر لا لغات العصور الخوالي وكما قيل (نحن فى حاجة إلى زعماء يعرفون كيف يحدثون يقظة فى نفوس الجمهور، ويتركون فيها من الإقتناع أثراً بيناً. فالزعماء إذا لم يكونوا أدباء فى بيانهم وبليغ خطابهم لا يمكنهم أن ينقذوا أممهم من حيرتها ولا أن يستوقدوا نار الحمية فى نفوس ناشئتها، إذ لم يعد الأدب اليوم كما كان قديماً أدباً فياضاً بالصنعه براقاً بتزيين البديع مما لا يعجب إلا قائله ولا يطرب إلا صاحبه وإنما الأدب أصبح عاملاً من عوامل تكوين الأمم وإبلاغها رشدها وإنالتها استقالها): (٢)

ونجد أن لغته بعفويتها وبساطتها ؛ سرعان ما ضمنت له ولكل ما يقول الانتشار والذيوع وكأنه هو المعني بقول الشاعر: (٣)

وأرسلته عفواً فكان كما ترى قوافى تجتاب البلاد سراع

(١) الأدب العربي فى المهجر د / حسن جاد صـ ٢٠٩ ط ١ القاهرة ١٩٦٩
(٢) حركة التجديد فى الشعر المهجري د . عبد الحكيم بليغ صـ ٧١ الهيئة المصرية العامة للكتاب
(٣) ديوان معروف الرصافى المقدمةً

ففى نسقه التعبيرى حاول الشاعر أن " يحيا نبض عصره، فى تجربته الشعرية و اتجه فى صوره الشعرية إلى إلغاء ما يمكن أن يسمى بالمعجم الشعرى، والذى كان يضم المفردات الشعرية التى حرصت عليها القصيدة العربية التقليدية والرومانسية " فلم يعد أمام هذا الشاعر الجديد ما يمكن أن يسمى باللفظة الشعرية، وإنما أصبحت كل لفظة قادرة فى مكانها على التعبير "(١) وقد استطاع جبران تطويع اللغة العربية، وتهذيبها وحسن صياغتها وتحويل عباراتها النثرية إلى قصائد ؛ تحمل رنين الشعر وإن لم تحمل أوزانه،ولونه بما حملته من ألق العواطف وهمس النبضات، وتكثيف الدلالة الإيحائية.

وجبران شارك " كتاب المهجر على تحرير اللغة من قيود الشكلية وتجديد الأساليب اللغوية دون الخروج على قواعد اللغة، وتبنى فنون أدبية حديثة

إن لغة جبران الشعرية فريدة خاصة به ثم المعني والمحتوى الشعري لقصيدة المواكب فرض تلك اللغة ابتداء من وقوعه على العنوان

(المواكب) في اتجاه وضع فرضية للقراءة تحيلنا صيغة الجمع على المفرد (الموكب)، وما يوحي به من دلالات ترتبط في شموليتها بالفرح والإحتفاء ، على الاتفاق بين الجماعة حول حدث له طقوس التواصل بين أفرادها ، وكما يكون الموكب رفقة حول هودج عرس على سنم راحلة ، يكون أيضا صحبة لحضرة الحاكم على صهوة جواد ، وفي الحالتين يكون جمع الموكب تابعاً فيما يشبه فقدان القدرة على مخالفة التوجه الذي يكون فيه أو عليه أصل الاجتماع في الموكب... ومنه وكب و واكب في الفعل، من قبيل نزل .... والموكب على وزن مفعل برغم صيغة المكانية ، علما بأن الأصل في المكان الثبات، فإنه يتضمن الحركة ،لأنه بغيرها لا يكون موكبا وفق ما تم حوله الإصطلاح ،على عكس المنزل مثلا... وقد يوحي الجمع في العنوان بالتعدد أو التنوع بين تلك المواكب، والتي

(١) حركة التجديد فى الشعر المهجري د . عبد الحكيم بليغ صـ ٧١ الهيئة المصرية العامة للكتاب

يمكن أن تتفاوت في حجم مكانتها، ودرجة حركتها سواء اختلفت في الزمان أو اتفقت في اللحظة ،لأن المواكب على الاختلاف تقتضي وجود علل مختلفة هي أصل مناسبة الاجتماع كأمكنة متحركة ، بينما المواكب على الاتفاق ،تنحصر في ذلك الاجتماع حول محور هو أصل الانقياد بتوجيه... لذلك يقال أيضا: مواكب السفن ، حين يتم تجميع مجموعات المراكب المتحركة في عرض البحر لتأخذ مسارا معينا لها سلفا.

وتقودنا تلك الملاحظة إلى تصور ما يمكن أن يتناوله الشاعر أو يعرض له ،انطلاقا من إيحاءات دلالة اللفظة،كأن يتطرق الشاعر إلى ما تم السكوت عنه بالحذف تقديما أو تأخيرا ،إما بالصفة فيما يمكن أن يكون نعتا من قبيل: المواكب الحزينة وإما بالفعل الذي يحدد نوع الحركة وزمانها ، كأن نقول: ضاعت المواكب المتعبة.والشعر زينة الفنون وقد احتل هذه المكانة لأداته المميزة آلا وهى اللغة.... وقد استطاع من خلال التراكيب اللغوية المتوالية بشكل مخصوص أن يرتفع بفيض اللغة الإيحائى فارتفع بها عن التعبير الحرفى إلى التعبير الفنى غير المباشر الذى يفجر طاقاتها فى التعبير فنسمع الهمس

اعطنى الناى وغن فالغنا جسم يسيل

وقد صاغ المعاني التي سعى إلى التعبير عنها، بلغة اختار تشكيلها من دفقة انفعالاته ، فكانت مفردات الجملة التصويرية نابعة من الحاجة إليها وفق ما يستلزمه المقام ، دون محاولة للإغراق في البحث عن الكلمات ، لمجرد أن لها جرساً من الماضي أو وقعاً من القديم ، ولم يعبه أن مال إلى البساطة والسهولة والمتداول في الحياة التي يتفاعل معها ، بل لم ينقص من قيمة نثره الفني قبل شعره ،أنه لم يكتب سوى العبارة التي تصدر عن وجدانه ووعيه ، رغبة في المكاشفة المطلوبة بين المبدع والمتلقى،وتحقيقاً للتواصل عبر الأداء اللغوي الهادف معنى ومبنى.

لعله في اختياره ذاك يبدو منسجماً مع موقفه من اللغة وطبيعة نظرته إليها ، إذ لم يكن له ما يبرر الاستمرار في التعلق بتلك اللغة ذات البعد القداسي ، كما تشكل في الوعي العربي الإسلامي انطلاقا من مفهوم الوقف دون الاصطلاح ، ألم يكن جبران خليل جبران بالرغم من عروبته القومية مسيحي الاعتقاد !!؟

وعلى الرغم من مخالفته للنظام السائد فى عصره من سيطرة التيار التقليدي للبعث والأحياء بما يمثله من نظام خاص فى الأداء ، كما مثله البارودي وشوقي ، إلا أنه نجح في فرض أسلوبه التصويري على القارئ العربي ، و أبدع باللغة العربية على طريقته، في رسم لوحات لغوية لخواطره و قصصه ، يستوي في ذلك نثره وشعره – على قلته – لم يترك جبران غير ديوان وحيد بعنوان " المواكب " و هو عبارة عن قصيدة مطولة ظهرت عام ١٩١٨، غير أن تميز جبران ضمن كوكبة الرومانسيين ، إنما يعود لتأملاته في الحياة والكون ، والتي تجاوزت مواقف التفاعل مع الطبيعة من خلال أنسنتها، وإسقاط الذات عليها. فلم يقف عند العاطفة أو الإحساس الشخصي الفردي، فيما له صلة باليوم المعيش في الحياة الخاصة أو العامة ،بقدر ما وقف عند الهم الوجودي والهواجس الإنسانية في بعدها القيمي الكوني في المطلق ، واحساسه بسعة ذاته حتى تستوعب الكون كله، يدل على هذا مقاطع القصيدة في عمومها ، ومفرداتها اللغوية الخير –الشر – الناس – الحياة الحق – الحزن – الأحلام – الطبيعة – الدين العيش – السعادة – الحب الرجاء – الدهر – الصراع – الحرية الموت – الجسم – الروح – الخلق – الغناء – العدل.

التجديد في شكل القصيدة:

اشتهرت المواكب شهرة واسعة واحتلت مكانة مميزة إذ تفيض بنغمات هامسة، لا يوجد صيحة صاخبة متمردة أو نغمة خطابية مجلجلة والحقيقة أن جبران كان مجدداً على الأنماط الموروثة من الشعر القديم، لذا تنصل من النظام العروضي وقافيته، فقدم لنا قصيدة ذات شكل مقطعي متغير القافية ليبعث فى الإيقاع التنوع ليتيح للشعر أن ينطلق بلا قيد يؤرقه فى تعبيره أو تجسيد فكرته ورؤاه.

(سار على هذا النهج كل شعراء المهجر وكانوا يهدفون من ذلك النهوض بالأدب ليكون صورة للحياة، ولهذا خرجوا عن قواعد اللغة وهاموا بالكلام عن النفس بدون رطانة أسلوبية، والبعد عن التكلف وإظهار الإبداع فى كل صوره ومناحيه، وقد تخلص شعراء المهجر من الجمود والتقليد الذي ران على الشعر العربي فى كل العصور، ولعل حركة الشعر الحديث، المنشور فى الكتب وفى كل الصحف والمجلات كان انعكاساً لما قاله شعراء المهجر من أشعار وما نادوا به من تحديث وابتكار، مما يعد ثورة على الجمود الذي كان للشعر العربي عند شوقى وحافظ والبارودى وغيرهم من الشعراء، لقد أبدع كل شعراء المهجر فى إحداث تجارب شعرية تأخذ بلب القارئ من خلال الكون والحياة وصوروا ما يعن لهم من أفكار.. كانت النموذج الأمثل لما قيل من أشعار) (١)

(١) النص الأدبي فى العصر الحديث بين الحداثه والتقليد د . عبد الرحمن عبد الحميد على صـ ١٠٢ دار الكتاب الحديث ٢٠٠٥ .

الحوار فى القصيدة

مما لا شك فيه أن جبران كشاعر قدم لنا نموذجاً شعرياً متقدماً ثائراً حراً فى لغته غير مقيد بالتقاليد اللغوية القديمة، فجاء خطابه الشعري متناسقاً فعالاً ذا إيقاع وحركة ينبض بالحياة والتماسك فى اللغة والموسيقي، الخيال – العاطفة والأفكار – و هي مفردات التجربة الشعرية التى تتكون منها القصيدة، واللغة تعانقت مع موسيقاها بغير تكلف ولا صنعة تعوق مسارها إلى الحواس السمعية، والخيال جاء معبراً عن عاطفته الجياشة التى تحلم بالمثالية والعالم الأفضل من خلال الأفكار التى طرحها الشاعر فى كل مقطوعة شعرية فى القصيدة بحيث شكل بهذه الأدوات الفنية صورة متوهجة واضحة المعالم، شديدة الأثر فى المتلقي من خلال فلسفة الوجدان وفقد الحياة، وقد شارك جبران خليل جبران كتاب المهجر العمل على تحرير اللغة من قيود الشكلية وتجديد الأساليب اللغوية دون الخروج عن قواعد اللغة، وتبني فنوناً أدبية حديثة ؛ كالشعر المنثور ولهذا جاءت قصيدة المواكب ذات أنساق متماسكة ومتناسقة بالغة الإيحاء فأضفى عليها الجمال فى الأداء، والإحساس المشع منها فكل عمل فني وحدة كاملة – فوسم قصائد جبران بسمات وخصائص متفرده زادتها ثراء وجمال، وهذا يتوافق مع وجة نظر جبران فى البعد عن الأغراض الشعرية الموروثة، واللجوء إلى الأساليب التعبيرية الأكثر التصاقاً بالنفس ومتطلباتها وقد قال (لكم من أغراض الشعر الرثاء والمدائح الفخر والتهنئة، ولي منها ما تكبر عن رثاء من مات وهو فى الرحم، ويأبى مديح من يستوجب الاستهزاء ويأنف من تهنئة من يستدعي الشفقة) (١).

(١) التيارات المعاصرة فى النقد الأدبي د/بدوى طبانه صـ ١٣٩ مطبعة الأنجلوا

الحوار الذى أجراه جبران مع نفسه بعد أن خلع على نفسه صفات المتلقين المنصتين، فكأنهم يتأملون معه الأحوال ويتبادلون معه الرؤى ووجهات النظر، وقد وفق باختياره للبناء الحواري.

(ولعل اختيار جبران للبناء الحواري اعتماداً على تعدد الأصوات المشار إليها سلفا ، متناسب مع رغبته في إضفاء الحياة على الرسالة المستهدفة ، تجاوزا لرتابة الإلقاء المألوف في القصيدة ذات الصوت الأحادي ، بحيث لا يحضر الهم الشخصي المفرد ، من خلال ذلك الحضور الذاتي المتداول في الشعر العربي عامة ، بل يفسح المجال لتدخل الصراع كقوة تحرك الوجود وتكشف عن المزيف في الواقع، حين يبتعد الإنسان عن القيم الكونية ذات البعد الإنساني ، فيظهر الشاعر على امتداد النص ، من خلال أفعال تصب في ذلك الاتجاه: يحكي – يصف – يصور ينفي – يرغب) (١).

ويمكن للقارئ أن يقرأ القصيدة مرة أخرى ، ليجد نفسه أمام احتمالات الفهم المتجدد مع التأمل والمراجعة ، لأن المحاولة الأولى إنما تقربه من النص في ضوء الانطباعات التي تتركها المعاني في النفس ، أو توحي بها تعاملات الشاعر مع اللغة والصور، غير أن ما يبقى قاسماً مشتركاً بين تعدد القراءات وتنوع مستوياتها ، هو تميز جبران الشاعر ، بين كوكبة المجددين ضمن مسار تطور الشعر العربي المعاصر ، سواء على مستوى المضمون المطروق، أو على مستوى التعبير الفني لغة وإيقاعا وتصويرا.

العمل الفني يجب أن يكون مكتمل العناصر، محدد السمات فى وحده بيئية وقد تحوى هذه الوحدة فروقاً بين عناصرها لكنها ككل تشكل العمل الفني فلو أضفنا إليه شيئاً أو حذفنا منه جزءاً تكون النتيجة إما انهيار العمل كلية، أو خلق عمل جديد... والمواكب تعكس تلك النظرة الأدبية فهناك تماسك فى

(١) النص الأدبي فى العصر الحديث بين الحداث والتقليد صـ ١٠٣ .

وحدتها العضوية من خلال النظام والروعة فى الأداء الشعري، وهي إن كانت سيئة على المقاطع إلا أن كل مقطع وظفت فيه الألفاظ والخيال والصور الموحية توظيفاً متناسقاً بلا زيادة أو نقص فصار كل مقطع – يحمل فى طياته ومعانيه فكرة موحية ؛ وهي إن كانت توحي بالاستقلال والاكتمال فى ذاتها إلا أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعمل الكلي من خلال روابط حقيقية لا ترى "(١) :

العاطفة الشعورية:الشعور المسيطر على المهجريين شعور ليس مزدوج، بل متعدد الاتجاهات فهناك حنين للوطن الأم، وهناك سعادة بالمستوطن الجديد وتبعاته من حرية وسعة فى الرزق،هناك افتقاد للطبيعة ورحابتها وبهائها، وضيق وتبرم من المدنية الجامدة، والجمال الصناعى المزيف.... وحينما نظم جبران قصيدته كان صادقاً فى حسه.

لذا جاءت صياغته تنضح بالصدق "يشع من جاءت حروفها حدة التأثر حزناً وفرحاً وإيماناً واقتناعاً بما يقول وما يبث من أفكار.والصدق شرط حيوى فى التجربة الشعرية وقد اشترطه طه حسين إذا ما رنا المبدع للتخلص من ربقة الوزن والقافية يقول طه حسين: ليس على شبابنا من الشعراء بأس فيما أرى من أن يتحرر من قيود الوزن والقافية إذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم، لا يطلب إليهم فى هذه الحرية إلا أن يكونوا صادقين غير متكلفين وصادر من أنفسهم غير مقلدين " ويطالب طه حسين الأديب بالإبداع والنجاة من سخف القول وتافهه "(٢)

وكأن جبران وعى التوجيه فانطلق معبراً عن ذاته وشعوره غير متقيد بوزن أو قافية –لحد ما – متقيداً بالصدق الشعورى حريص عليه فكل ما يحسه المرء يجب أن يعبر عنه بالطريقة التى تتفق وأحاسيسه ومشاعره، فروائع الشعر العالمى لم تتقيد

(١) مجلة الموقف الأدبي الشهرية التابعة لاتحاد الكتاب العرب عدد ٤٢٠ – نسيان ٢٠٠٦ .
(٢) الشعر فى الشام صـ د سميرة ١٢٥

بوزن أو قافية (١) والعاطفة تسيطر على الشعر المهجرى... لذا نجد قصائده – غالباً–ما تتمتع بالوحدة العضوية لخضوع الشاعر وقت النظم للحظة شعورية حادة.. ولقد حاولت أن أعنون المواكب بعنوان أخر لا يتفلت منه بيت فوجدت أنه قد يناسبها

" الطفولة المشيبة " فالطفولة وما تقتضيه من براءة منطلقة، والشيب وحقه من وقار يستجلبه الخبرات المتراكمة... فجبران امتص رحيق الحياة وخرج لنا بحكم صاغها تارة على لسان الشيخ وأخرى على لسان الشاب. وهو هنا لا يكتفى بحسه الفردى بل يدعو أن يشاركه الجمع " الإنسان " فى التأثير بما يبثه ويحكيه " إن غاية ما يسعى الأديب إلى تحقيقه التأثير والإقناع بالفكرة أو بصدق الإحساس، حتى تكون مشاركة الناس له بعد إقتناع وتأثرهم مظهراً من مظاهر تقديره وعلامة من علامات الإعجاب به وبفنه الأدبى) (٢)

ويعمد الشاعر إلى بث عاطفته ليجذب تجاوب المتلقين ويستخدم كل وسائل ألأداء فقد يلجأ إلى " صور التشبيه وصور الإستعارة والتكرار ليزيد معانيهم كشفاً ووضوحاً ويقوون هذا الكشف بما يلجئون إليه من ضروب المبالغات التى تساعدهم تلك الصور على تحقيقها (٣)

التصوير الفني.... فى هذه القصيدة تتشظى فكرة رؤية العالم أو الرؤية الكونية إذ أن " رؤية العالم تمر عبر إمعان النظر فى الكون والحياة ثم تصوير ذلك عبر

---

(١) الأدب العربي فى المهجر د / حسن جاد صـ ٤٠٩ ط ١ القاهرة ١٩٦٩
(٢) التيارات المعاصرة فى النقد ألأدبى بدوى طبانة صـ ٤٠٣ ط ١ مكتبة الأنجلو ١٩٦٣
(٣) المرجع السابق صـ ٤٠٣

خصوصية المبدع "(١) وقد أبدع جبران فى تصويره الفني، فالرؤيا لديه مزدوجة ظاهرة وباطنة، فصار الوصف استناداً على هذا على مستويين: حسي ومعنوي، فاستخدم أدواته الدلالية والبلاغية فى إطار لغوي بسيط يتفق مع مبدئه الذي أقره سلفاً – لكم لغتكم ولي لغتي – ومنهجه الذي اعتنقه فى التعبير... من اللجوء إلى الطريق الأيسر لتأدية المعني المطلوب دون التراجع للخلف، والبحث عن كلمات ثقيلة مثقلة بمرور الزمان عليها. فتكون متثاقلة عند مرورها فى الأذن.

كما شاعت فى قصيدته ألوان بلاغية مطروقة من قبيل التشبيه والمجاز والاستعارة والطباق والمقابلة ، دون اللجوء إلى الإغراق في الصنعة البيانية أو البديعية كهدف فني ، فينسجم الشاعر بذلك مع اختياره اللغوي الذاهب إلى التعامل مع ما يحقق الإبلاغ و الإمتاع.

يمكن الوقوف على سبيل التمثيل ، عند المجاز بياناً والطباق بديعاً ، باعتبارهما ظاهرتين مهيمنتين على النص، بحيث يمكن ربط المجاز بخلعه على الطبيعة صفة الإنسان في إطار التوجه الرومانسي ، حين يلجأ الشاعر إلى خلق الحياة فيها انطلاقا من ذاته فيما يشبه الإسقاط " الناس آلات – أصابع الدهر الشتا يمشي – الغنا يرعى – العدل يبكي ويستضحك:

إن عدلَ الناسِ ثلجُ ..... إنْ رأتهُ الشمس ذاب

بينما يمكن ربط الطباق في التعبير ، بالرؤية الوجودية للعالم، من خلال ثنائياته الضدية الخير – الشر – مجيد – ذليل – يبقى – تفنى– يبكي – يستضحك صغروا – كبروا – الجسم – الروح " وقد استخدم جبران تلك الألفاظ بشكل متنوع ليثرى القصيدة وإدراكاً منه لأهمية الصورة " فى عملية ألإبداع الفنى ويتبدى ذلك فى رد خاصية الشعر النوعية إلى الصورة والخيال، وفى إنها وسيلة التعبير عن التجربة وهى تعطى هذا التعبير الزينة والزركشة التى تساعد على تفهمها (٢)

وقد جاءت الصور التي أبدع جبران في رسمها ، غير منفصلة عن رؤيته الرومانسية و الفلسفية بل متوافقة مع رؤاه ومعتقداته على الصعيدين اللغوى... والمنهج

(١) تأويل الخطاب الشعرى النظرية والتطبيق محمد احمد العزب نموذجاً إبراهيم أمين الزرزمونى مكتبة الآداب ص٣١

(٢) الصورة الفنية فى شعر لبيد المقدمة صـ ج

الشعرى تجديداً.مما ساعد على توضيح رسالته المبتغاة....والصورة الشعرية التى التزمها جبران متميزة....

إذ يدور حول الفكرة بتقريرية ومباشرة لا فتة مازجاً فيها بين التراث المتوارى فى الذاكرة قديما والرؤية المعاصرة للفكرة نفسها إذ تناول الشاعر العربى القديم.... فكرة السكر وحدة تأثير الشرب

فإذا انتشيت فإننى رب الخورنق والسدير
وإذ صحوت فإننى رب الشويهة والبعير(١)

واستخدم جبران نفس الفكرة إذ أن الخمر تصيب شاربها بالتهيأت

فالناس إن شربوا سُرُّوا كأنهم رهن الهوى وعلى التخدير قد فطروا

فركن إلى تعبير جديد يوضح ما يتطلع إليه الشاعر

ليس فى الغابات من مدام أو خيال

وفى تهويمات رومانسية بيِّنة شخصن الطبيعة وتساءل عن أهميتها وأثرها

فالهوى ماء تهادى والندى ماء ركد
والشذا زهر تمادى والثرى زهر جمد

والطبيعة هنا لها وجودها وهذا شأن الطبيعة عند الرومانسيين إذ " يربطوا بين مشهد من مشاهدها وبعض ما يدور فى نفوسهم من شجن أو سرور(٢)

" الأبعاد الثلاثة متحققة البعدالزمنى – البعد المكانى – البعد الصوتى " وهذه الأبعاد هى خلاصة التجربة الداخلية التى تدور حول محور الذات الحالمة حين تلجأ إلى الهروب من قسوة واقع خارجى يصبح احتماله – بالنسبة للحالمين – أكثر

(١) المنخل اليشكرى – الحماسة للتبريزى
(٢) الصورة الفنيةفى شعر لبيد المقدمة ج

من أن يطاق "(١)

ففى نطاق البعد الزمنى إذ يفر من واقعه المرير وفحيحه مستعيناً بذاته الطواقة إلى السعادة،ونايه آلته لتخطى هذا الهجير ليتفيأ مستظلاً مستروحاً بالغابة تمده نفسه بمدد لا ينقطع، ومحيطه المجتمعى يفرض عليه بعداً مكانياً فيتخطاه إلى أفق أرحب فى الغاب، والبعد الصوتى يفر من صخب الحياة العبق باليأس الناضح بالقتامة متطلع إلى أمل جديد

" فهو يريد إثبات وحدة الوجود وتغير المختلف ليصير متوافقاً ولكن التغيير بعيداً عن إنتهاج سبيل العنف بل بالغناء على النادى "جاعلاً هذا الغناء خاتمة لكل نشيد من أناشيد قصيدته.. ودائماً تفيض أشعاره بالحيرة والشجى وألألم والتأمل فى الطبيعة فى لوعة وأنين "(٢)

يقول جبران معلقاً على اختياره للغة تخصه هو فقط " لي من اللغة ما تقوله الأم لطفلها والمتعبد لسكينة ليله لكم لغتكم عجوزاً معقدة ولي لغتي صبية غراقه فى بحر من أحلام سبابها.. إن ما تحسبونه بياناً ليس بأكثر من عقم وزركشة "(٣) فهو هنا يرنوا إلى التجديد وجعل لغته جزء من ذاته ومن حياته المعاشه أخذ ذلك من خلال ما يلحظه في الواقع ، أو من خلال ما يتطلع إليه في الطبيعة ، فكانت عناصرها وصياغتها الفنية ، محملة بالدلالات التي استهدفها الشاعر من تعبيرات لغوية، مفردات وأساليب ، مما يدل على أن التوظيف الفني للصورة الشعرية ، إنما يخدم المعنى المراد مشاركة القارئ فيه ، إبلاغا بالمضمون وإمتاعا بالشكل فجبران يعى تماماً تفرده واسبقيته للشعراء فى اختيار قاموس لغوي خاص به يؤدى المعني بلا إفراط أو تفريط فهو حريص على أن تؤدي أداته الشعرية الدلالة المبتغاه منها.

(١) فى الرومانسية والواقعية دسيد حامد النساج ص٢١
(٢) الإتجاه الوجدانى فى الشعر المعاصر د عبد القادر القط ص٢٣٣ مكتبة الشباب
(٣) التيارات المعاصرة فى النقد الأدبي د/بدوى طبانه ص ١٣٩ مطبعة الأنجلو

(ارتباط الأداة الشعرية بنظام متميز من الدلالة لا يجعل من الوزن الشعري مجرد محاكاة لفن الموسيقي، بل يجعل موسيقى الشعر نابعة من طبيعة أداته الخاصة من حيث الإمكانات الصوتية لهذه الأداة إذا ألفت فى علاقات، ومن حيث دلالة هذه العلاقات الصوتية على غرض من الأغراض أو معني من المعاني) (١)

و القصيدة بناء فن متوال يتبدى فيه التدفق والإنسياب...إذ تأتى الفكرة تلو الأخرى..... فالإيقاع البنائى يعلوه " انسياب مترفق، لا تقطعه المفاجأة المربكة، ولا الصياغات الحادة ذات النبرة العالية المجلجلة وعلى عناصر البناء: الصوت و اللفظة والصورة انتقاء وحدتها، نسج تكويناتها، وعلاقاتها من مصادر تتسم بالنبرة الهادئة فى الإنفراد والصياغة حتى ليتسنى لجزئيات الإيقاع الموسيقى فى صدر البيت وعجزه وفى القصيدة كاملة، الخلوص إلى بنية متلاحمة متسمة بإيقاع بنائى هادىء منساب " (٢) إذ على ما تحويه القصيدة من توليدات فنية إلا أنها توالت فى إنسيابية وطلاقة بلا عنت أصاب المؤلف لإيرادها، أو إرهاق لحق المتلقى لاستيعابها، وربما مرد ذلك لطلاعه الآداب الغربية واحتكاكه بالنظم، وطرائقه الجديدة على الأدب العربى، إذ استطاعوا أن يأخذوا بناصية الشعر ليصبغوا من نسيجه ألواناً مختلفة بأشكال متنوعة من الرسومات " ولا ينكر تأثير الأدب المهجرى فى أدب البلاد العربية فقد كان أول من تحرر تحرراً ملموساً من غلبة الموضوعات التقليدية كالمديح والفخر،كما تجنب الكثير من شعر المناسبات

(١) مفهوم الشعر دراسة فى التراث النقدى د / جابر عصفور الهيئة المصرية العامة للكتاب – سلسلة دراسات أدبية صـ ٣٠٢ .

(٢) فى دواوين شعر المهجر الجنوبى رسالة دكتوراة محمد عبد العزيز إشراف د سهير القلماوى د جابر عصفور ١٩٩٥ صـ ١٠٤

وتحرر من النزعة الخطابية الغالبة على الشعر العربى، فاستطاع أن يغزو القلوب فى البلاد العربية ويجد له أنصار ومؤيدين (١) "

والصورة الفنية فى المواكب ذات طاقات كبيرة من الإيحاء (٢) جبران... يستخدم الصورة للتعبير عما جاش بخاطره ؛ إذ حط يده على الصراع الأزلى المجسم للتناقض بين قوى اليأس وآملين الأمل، فصور هذا بأبعاده الثلاث.. البعد الزمانى والبعد المكانى والبعد الصوتى

فلجأ إلى التصوير ليمنح تجربته " النسق والنظام اللذين تفتقر إليهما فى مراحلها ألأولى الشعر العربى " (٣)

وجبران كان وفياً للنهج الرومانسى شأنه شأن الرومانسيين الذين يرون أن الحل للخلاص مما لا يرغبون هو الفرار إلى الأماكن البعيدة، ثم يقصون الدوافع والطرق لذلك " وهم يقصون ذلك من خلال تجارب ذاتية تعرضوا إليها هم بذواتهم، ونراهم يصبغون تجربتهم الذاتية بصبغة الشاكى الأسيان المتوقد المشاعر، الذى يتجه بأسلوبه إلى القلب أولاً وقبل كل شىء وليس إلى العقل بطبيعة الحال " (٤)

ونجد الصور متلاحقة تكتظ بها المواكب إذ اعتمد عليها لتوضيح فكرته إذ بالصورة تتبدى قدرة الشاعر على التشكيل إذ يصوغ تجربته " فى نسق يحقق المتعة والخبرة، ويستكشف بها موقف الشاعر من الحياة والكون، كما أن الصورة

(١) الشعر العربى القومى فى مصر والشام سميرة محمد زكى أبو غزالة المؤسسة المصريةالعامة للتأليف والنشر صـ١١٤

(٢) الصورة الفنية فى شعر لبيد رسالة ماجستير صلاح مصيلحى على عبد الله إشراف النعمان عبد المتعال القاضى ١٩٨٠المقدمة ج

(٣) الصورة الفنية فى شعر لبيد رسالة ماجستير صلاح مصيلحى على عبد الله إشراف النعمان عبد المتعال القاضى ١٩٨٠المقدمة ج

(٤) فى الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج صـ ٢٤

تدفع بالمتلقى إلى معايشة التجربة، وتخلق فيه التجاوب العاطفى بموضوعها أن الصورة بهذا هى الجوهر الثابت والدائم فى الشعر مهما تغيرت مفاهيمه ونظرياته سيظل الإهتمام بها على أشده مادام هناك شعراء يبدعون ونقاد يحاولون تحليل هذا الإبداع(١)

وجبران فى تشكيله للصورة الفنية يقع على صورة لها امتداد وبعد.

والحب فى الناس أشكال وأكثرها كالشعب فى الحقل لا زهر ولا ثمر

فقد وقع على صورة بمثابة التشكيل الجمالى " الذى هو ثمرة التزاوج بين احساس الشاعر بعجز اللغة العادية ومحاولة التعبير عن تجربته وموقفه

" وهذا يحدث فيها تغيرات أو يخلق العلاقات الجديدة التى تكسبها فاعلية خاصة تجعلها قادرة على حمل التجربة والتعبير عنها فى تشكيل صورى موجزا " والصورة الشعرية فى المواكب شديدة الإلتحام بالطبيعة وهذا يرجع للمهجريين أنفسهم إذ إتحدوا مع الطبيعة والتصقوا بها إذ إنها تعكس ما يختلج فى نفوسهم ويدور بخلدهم " فشخصوا بذلك الطبيعة حتى صارت إلفهم يخاطبونها وتخاطبهم ويرمزون لصورها بحالات نفوسهم، فهم والطبيعة مظاهرها شىء واحد وإن اختلفت الأسماء

وهذا الإلتحام مع الطبيعة وشخصنتها ركن ركين فى الشعر الرومانتيكى ولعل جبران اقتفى هنا أثر ورد زورث الشاعر الإنجليزى الشهير

---

(١) فى الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج صـ ٢٤

الخاتمة والنتائج

سحبت الرومانسية رداء التعبير على المنجزات الأدبية فى بداية القرن الثامن عشر، وصار لها تابعون يعبدون طريقها فتسللت إلى عقول المبدعين فتأثروا بها وسيطرت على المنجزات ألإبداعية، والمذهب الرومانسى طبيعى "إن الرومانطيقية تنبع من التلقائية فى التعبير فهى ذاتية تقدس البدائية والسذاجة"[1]

لذا فالشاعر الرومانسى يعلق بالطبيعة ويصوغها أنغاماً مسكوبة فى الكلمات بالإضافة إلى تطلعه إلى التجديد على كافة المستويات التعبيرية الأوزان المعانى والأخيلة ألأفكار والصيغ التعبيرية، وكانت مدرسة المهجر من أبين المدارس التى وضح فيها شيات المدرسة الرومانسية إذ تفاعل جبران مع نهج وأساليب الرومانسيين بناءً وفكراً وشكلاً وتبدى ذلك فى تجربته الإبداعية عامة و"المواكب" خاصة.

فجبران من زعماء المدرسة المهجرية... جبران الرسام بالكلمات والألوان تبدت فى أشعاره التعلق بالطبيعة، ورهافة الحس،وفيض المشاعر، وجيشانها وهذا من السمت الرومانسى، وقد حمَّل أشعاره أفكاره التى يتشظى فيها ثقافته،و رؤاه وأمله، مزخوره اللغوى، وإرثه الثقافى، ومكتسبه الفكرى، وتجلى فى إبداعه رؤيته الأدبية فهو يرى أن الأدب " نشاط يترجم الحياة الإجتماعية " اتسم أدبه بالجدة والطرافة، فى اللغة وألأسلوب والإيقاع، ودعى للتخلص من النهج القديم وحينما استخدم الأساليب القديمة وزن ما يريد ليحدث التوازن الذى يبغيه ؛ فيأخذ من ألأساليب القديمة بقدر " لقد تجاوز جبران المألوف من المجاز والجناس وخلافهما، فى محاولة لتحميل الكلمات أكثر مما تعود ألأدباء أن يحملوها،

(١) ديوان إيليا أبو ماضي – طلاسم صـ ١٧٧ تنقيح جورج شكور ط دار الفكر اللبناني بيروت ط ١ سنه ٢٠٠٤ .

وتجريدها من السطحية والسذاجة. إنه فيض من الصور الرائعة المبتكرة، فى عبارات موسيقية لطيفة الجرس، شجية الألحان (١)

وتعلق الرومانسي بالطبيعة لافت للأنظار ؛ وإذا كان النقاد والكتاب قد أفاضوا فى الحديث عنها مبادئها وهيكلها ؛ فقد آثرت الحديث عن ذلك..... فى إطار النموذج التطبيقى الذى اخترته... بعض أبيات قصيدة " المواكب " إذ أن هذه القصيدة استودعت جل خصال الشعر المهجرى إذ حوت الاستكناه النفسى بقسميه المباشر والغير مباشر، وأدب المهجر بشكل عام بعيد عن الصخب والتحليل الذاتى: فهو فى حوار مستديم مع النفس يلتمس فهمها ووعى ما تبغى والمشاركة الوجدانية إذ أشرك الكون بما حواه فيما يحس ويشعر، ولم ينحى الفكر جانباً بل بدى الفكر فيما يصوغه من جمل سارت مسار الحكم، تجلت فيها ما تأثر به وما أثر فيه، والتجديد بدى واضحاً فى الإيقاع أو الموسيقى، فلم تعد وحدة البيت تشغل بال شعراء المهجر، إذ القصيدة لديهم كلُ متكامل تمثل الوحدة. إذ أن كل بيت فيها يقوم بدوره، وهناك العبارات المعبأة بفيضها الإنسانى الذى ينساب هامساً بلا ضجيج، فحمل بشعور الإغتراب، الحنين إلى الوطن، الاحساس بمرارة الجهاد ؛ فهم يجاهدون فى أرض الغربة لإكتساب لقمة العيش إذ أنهم لم يهاجروا للعبث او للهو، بالإضافة إلى مجاهدتهم للشعور بالغربة والحزن الشديد لما أصابهم وأصاب أوطانهم. فلتحامهم بالطبيعة كمعادل تعويضى أمر لابد منه إذ يفرون إليها عند فجعتهم فى الواقع أو اصطدامهم بالحضارة الصناعية، فالطبيعة " تجسد له بكارة الأرض العذراء وبراءة الطفولة بما يشتملان عليه من حرية لم يعرفها سوى انسان الغاب "(٢)

(١) لبنان الشاعر صلاح لبكى صـ١٠٥. –جبران بين الحقيقة ومصالحة النفس-٤٣ص
(٢) فى الرومانسية والواقعية صـ ٢٤

ولا شك أن لإتقانه اللغة الإنجليزية جعلته يطلع على المنجزات الثقافية الإنجليزية التليدة والطريفة، فانعكست فى إبداعه فكراً وأداءً وحساً وانفعالاً... مما جعل تجربته تمور بالخصوبة، والعطاء وتجلى ذلك عند صبها فى القوالب اللغوية. وهناك توازن بين الخيال والواقع، فلا طغيان لأحدهما على الأخر ففى " المواكب تتجلى خصوصية رؤيته التى أشرك كونه فيها، ففى صوت من الإثنين نجده يعانق المطلق وينال السعادة التى تخطت كونها مظاهر مادية تلتف حول الإنسان إلى إحدى خواص تكوينه تلتحم معه فيصير كتلة واحدة، وإذ كان جبران ثار على التقاليد ورفضها ؛ إذ رأى فيها قيود مكبلة، ومن ثم نشد الحرية فى كهف الغاب... إلا إنى أرى أن هذه الأبيات لا تحمل ثورة بقدر ما تحمل رؤية واقعية مجسمة فى حياته، فبلد المهجر " أمريكا " تخلصت من الوصى " الراع " وتبدد تبييت الناس فى قالب معين، وتصنيفهم أنواع فى قطعان لكل قطيع راع، إذ آنذاك كان المَهجر يتمتع بحرية لحد كبير – يتمتع بها الأفراد والمجتمع – والسمة الذاتية تظهر حنينه وذكرياته وآماله، وطموحاته وفكره الذى ودَّ لو يسوَّد كل الأعين عن القذى ولا يبصر إلا أكاليل الزهور.

المصادر والمراجع

١- أعلام ورواد في ألأدب العربى د كاظم حطيطة دارالكتب الحديثةجـ٢
٢- بناء القصيدة فى دواوين شعر المهجر الجنوبى هيا محمد عبد العزيز الدرهم إشراف د سهير القلماوى د جابر عصفور ١٩٩٥
٣- تاريخ ألأدب الفرنسى - جوستاف لانسون ت محمود قاسم جـ٢
٤- تطور الشعر العربى الحديث د ماهر حسين فهمى مكتبة النهضة مصر
٥ - التجديد فى شعر المهجر دمحمد مصطفى هدارة ط١ ١٩٥٧ دار الفكر العربى
٧- التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى د بدوى طبانة مطبعة الأنجلو
٨- الإتجاه الوجدانى فى الشعر المعاصر د عبد القادر القط مكتبة الشباب ٢٠٠٦
٩ - ثورة الأدب محمد حسين هيكل دار المعارف القاهرة ط ٢ ١٩٨٦
١٠ - جبران وأثاره لجنة من الأدباء مطبعة المستقبل
١١- جبران بين التمرد ومصالحة النفس د عبد العزيز النعمانى الدار المصرية اللبنانية
١٢- حركة التجديد فى الشعر المهجرى د عبد الحكيم بليغ الهيئة العامة للكتاب
١٣- الحركة الرومانسية فى أوروبا وموقف النقد الحديث النقد الحديث منها د فايز اسكندر المجلة ع ٦٥ يونيو ١٩٦٢
١٤- المواكب جبران خليل جبران ط القاهرة ١٩٢٣
١٥- ديوان إيليا أبو ماضى طلاسم تنقيح جوج شاكور دار الفكر اللبنانى بيروت ٢٠٠٤
١٦- ديوان الشاعر القروى رشيد سليم الخورى ط سان باولو١٩٥٢
١٧- ديوان معروف الرصافى مطبعة الاستقامة بيروت
١٨- دراسات فى الشعر العربى المعاصر دار المعارف ط٢ د شوقى ضيف
١٩- روائع جبران - ألاعمال الكاملة د ثروت عكاشة الهيئة العامة للكتاب

٢٠ – ألأرواح المتمردة جبران خليل جبران
٢١– الرومانطيقية ومعالمها فى الشعر العربى الحديث عيسى يوسف بلاطة دار الثقافة بيروت ١٩٦٢
٢٢ – فصول فى الشعر ونقده د شوقى ضيف ط١٣ دار المعارف
٢٣ – فى دواوين شعر المهجر الجنوبى رسالة دكتوراة محمد عبد العزيز إشراف دسهير القلماوى د جابر عصفور١٩٩٥
٢٤– فى الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج دار غريب للطباعة
٢٥– ما الأدب جان بول سارتر مكتبة الأسرة ٢٠٠٥
٢٥– الفنون والإنسان إرون إدمان ت مصطفى حسين مكتبة مصر ١٩٣٨
٢٦– سوانح وآراء فى الأدب والأدباء د بدوى طبانة لونجمان ١٩٩٧
٢٧– الشعر القصصى حسين محمود دار النهضة العربية ط١ ١٩٨٠
٢٨– الشعر العربى القومى فى مصر والشام بين الحربين العالمية الأولى والثانية سميرة محمد زكى أبو غزالة المؤسسة المصرية العالمية للتأليف والترجمة صـ٩٥
٢٩– الشعر العربى فى المهجر محمد عبد الغنى حسن فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٥٥
٣٠– الصورة الفنية فى شعر لبيد رسالة ماجستير صلاح مصيلحى على عبد الله إشراف د النعمان عبد المتعال القاضى كلية الآداب جامعة القاهرة
٣١– الطبيعة فى شعر المهجر د أنس داود الدار القومية للطباعة والنشر
٣٢– مبادىء الفن جورج لونجوود ت د احمد حمدى محمود الهيئة العامة للكتاب٢٠٠١
٣٣– محطات معاصرة فى تاريخ الشعرونقده مطران –جيل العقاد – شعراء مدرسة المهجر محمد إبراهيم الطاووسى دار النهضة العربية

٣٤- مفهوم الشعر دراسة فى التراث النقدى د جابر عصفور الهيئة العامة للكتاب

٣٥- مدارس النقد الأدبى الحديث د محمد عبد المنعم خفاجى الدار المصرية اللبنانية

٣٦- لغة الشعر العربى الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية د السعيد الورقى دار النهضة العربية ط٣ ١٩٩٤

٣٥- الأدب العربى فى المهجر د حسن جاد القاهرة١٩٩٦

٣٦- مجلة الموقف الأدبى الشهرية إتحاد الكتاب العرب ع ٤٢٠ -٢٠٠٦

٣٧- المدخل إلى النقد رشاد رشدى مطبعة الأمانة ١٩٨٤

٣٨- النص الأدبى فى العصر الحديث بين الحداثة بين الحداثة والتقليد د عبد الرحمن عبد الحميد دار الكتاب الحديث ٢٠٠٥

٣٩ – هذا الرجل من لبنان ت د سعيد بابا طبع دار الأندلس

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	١٥
توطئة عصر جبران المذهب الرومانسي – مدرسة المهجر	١٦
مدرسة الأدب المهجرى وسماته	٢٣
الفصل الأول **الشاعر والتجربة**	
ثقافته وأثرها فى التجربة	٣٣
جبران آراء وأفكار نثر ونظم	٣٨
الفصل الثانى **عناصر التجربة الإبداعية في قصيدة المواكب**	
سمات الأدب الرومانسى والمهجرى وتحققها فى المواكب	٥٤
الإيقاع فى النص	٦٢
البناء الهيكلى للنص	٦٤
فكرة المواكب	٦٩
اللغة فى شعر جبران " المواكب "	٧١
التجديد فى شكل القصيدة	٧٨
الحوار فى القصيدة	٧٩
الخاتمة – النتائج	٨٩
المصادر والمراجع	٩٢